شقيق الروح

داڤيد ديوب



منشورات الكلمة

حائز جائزة غونكور للثانويين 2018

شقيق الروح

شقيق الروح

داڤيد ديوب

ترجمة: لينا بدر

دار الفارابي
بيروت

منشورات الكلمة
الجزائر

الكتاب:شقيق الروح
المؤلف: دافيد ديوب
ترجمة: لينا بدر
الغلاف: جبران مصطفى
الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان ومنشورات الكلمة الجزائر
ت: 301461(01) - فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 - الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com
الطبعة الأولى: آب 2019
ISBN 978-614-432-369-4

***

العنوان بلغة الأصل الفرنسية
FRERE D'AME
DAVID DIOP
Traduction
Lina BADR

ISBN : 978-2-02-139824-3
[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترَف القول الجريء بإدارة غازي برّو]
بيروت موبايل: 70216140
Atelier.oser.dire1@gmail.com
Réalisation et traduction de l'ouvrage: Atelier oser dire animé par Ghazi Berro

« Cet ouvrage, publié dans le cadre du Programme d'Aide à la Publication Georges Schéhadé, bénéficie du soutien du Ministère de l'Europe et des Affaires Étrangères et du Service de Coopération et d'Action Culturelle de l'Ambassade de France. »

إلى قارئتي الأولى، زوجتي ذاتَ العينين
المغتسلتين بنور البصيرة، في قُزَحيتَّيهما
ثلاث حبات باسمة من التبر الأسود.
إلى أولادي الذين هم بعدد أصابع اليد.
إلى والدَيّ، ناقليّ حياة خلاسية.

أسماؤنا نتعانق بها

مونتيني من كتاب في الصداقة،

المحاولات الكتاب الأول.

خائن من يفكّر

باسكال كينيار، من كتاب

«الموت من التفكير».

أنا صوتان متلازمان، واحد يتّجه

صوب البعيد والآخر يكبر.

الشيخ حميدو كانيه، المغامرة السرّية.

I

أعـرف، لقـد فهمـت، ولم يكـن يجـدر بي أن أعـرف. أنـا ألفـا نديـاي، ابـن شـيخ طاعـن في السـنّ، فهمـت، ولم يكـن يجـدر بي أن أفهـم. بحـقّ الله، الآن أنـا أعـرف. أفـكاري تخصّـني وحـدي، بوسـعي أن أفكـر كـما أشـاء، لكنني لن أتكلـم. من كانـوا جديرين بـأن أخبرهـم أفـكاري الباطنيـة، إخـوتي في السـلاح كلهـم الذين رحلـوا مشـوّهين، كُشْـحاناً، مبقـوري البطون، حيث إن الله نفسـه خجـل مـن رؤيتهـم حـين وصلـوا إلى جنتـه، أو الشـيطان فـرح باسـتقبالهم في جحيمـه، لم يعرفـوا مـن كنـتُ حقيقـة. الباقـون على قيـد الحيـاة كذلـك، لم يعرفـوا شـيئاً، والـدي العجـوز، والـدتي إن كانـت لا تـزال في هـذا العـالم، لـن تتكهّـن أبـداً. وزر العـار لـن يضيـف شـيئاً إلى وزر مـوتي. يتخيّلـوا البتـة بـماذا فكـرت، مـاذا فعلـت، وإلى أيـن أوصلتني الحرب. بحقّ الله، سـوف يسـلم شرف العائلـة، الـشرف الخادع.

أعـرف، لقـد فهمـت، ومـا كان يجـدر بي أن أفهـم. في عـالم الأمـس، لم أكـن لأجـرؤ، ولكن في عـالم اليـوم، بحقّ الله، سـمحت لنفـسي بـما لا يُمكـن تصـوّره. لم يعـلُ أي صـوت داخـل رأسي كـي يمنعنـي مـن ذلك: أصـوات أسـلافي، أصـوات ذويّ، صمتت كلها عندمـا فكـرت في فعـل مـا انتهـى بي المطـاف وفعلته. أعـرف الآن، أقسـم لـك بأنني فهمـت كل شيء عندما فكّرت أن بوسـعي التفكير في كل شيء. حدث الأمر ببسـاطة، من دون إنذار سـابق، بوحشـية، كأن بـذرة كبـيرة مـن بـذار الحـرب سـقطت عـلى رأسي من السـماء المعدنيـة يـوم مـات مادِمبـا ديوب.

آه، يـا مادِمبـا ديـوب! يـا مـن هـو أكثـر مـن شـقيق. لقـد اسـتغرقتَ وقتـاً طويـلاً حتـى مُـتَّ. كان ذلـك صعبـاً جـداً، لا نهاية لـه. منـذ تباشـير الصباح وحتـى المسـاء، كانـت أحشـاؤه في الهواء، باطنُـه في الخـارج مثـل خـروف قصّبـه جـزار الأضاحـي. لم يكـن مادِمبـا قـد مـات حـين كان باطـن جسـده في الخـارج. عندمـا التجأ الآخـرون إلى داخل الأرض، داخـل طعناتها النجلاء التي يسـمّونها الخنـادق، مكثـتُ بالقرب مـن مادِمبا، مسـتلقياً لصقه، يـدي اليمنى بيـده اليسرى، أنظر إلى السـماء الزرقـاء البـاردة، التي تتشـابك فيها الخطـوط المعدنيـة. ثلاث مـرات طلب منـي أن أقتله، ثـلاث مرات رفضـت. كان ذلـك من قبـل، قبل أن يسـمح لي بأن أفكّر كما أشـاء.

لـو أننـي كنـت حينذاك مـا أصبحـت عليـه اليـوم، لكنـتُ قتلتُه من المـرة الأولى التـي طلب منـي ذلك عندما كان رأسـه ملتفتـاً إليّ ويده اليـسرى في يـدي اليمنى.

بحـقّ الله، لـو أننـي أصبحت حينـذاك ما أنـا عليـه الآن، كنت لأذبحـه كـما يُذبـح خـروف العيـد، بدافـع الصداقـة. لكننـي كنـت أفكّـر في والـدي العجـوز، في والـدتي، في الصـوت الآمـر في داخلي، ولم أسـتطع أن أقـصّ سـلك آلامـه الشـائك. لم أكـن إنسـانياً مـع مادِمبـا الأكثـر من شـقيق، صديـق طفولتـي. تركـت الواجب يملي علـيّ خيـاري. لم أقـدّم لـه سـوى أفـكار خسيسـة، أفـكار يفرضهـا الواجـب، يـوصى بهـا بدافـع احـترام القوانـين الإنسـانية، لكننـي لم أكن إنسـانياً.

بحـقّ الله، تركـت مادِمبا يبكي مثـل طفل صغير في المـرة الثالثة وهـو يتوسّـل إليّ أن أقتلـه وقـد تغـوّط تحتـه، ويـده اليمنـى تتلمّس الـتراب كـي يجمع أمعـاءه المبعثـرة، الدبقة مثـل ثعبان المـاء العذب. قـال لي: «بحـقّ الله وحـقّ مـزار وليّنا الأكـبر، إذا كنت أخي يـا ألفا، إذا كنـت حقـاً ذاك الذي أظنـه، فاذبحني مثل خـروف الأضحى، لا تـدع فم المـوت الوحـشي يلتهـم جسـدي! لا تتركني لتلـك القذارة كلهـا. ألفا ندـيـاي... ألفا... أتوسّـل إليـك... اذبحني!»

ولكـن لأنـه حدثني عـن وليّنا الأكـبر تحديداً، وكـي لا أخالف

القوانـين الإنسـانية أيضـاً، قوانـين أجدادنـا، لم أكن إنسـانياً، تركت مادِمبـا الأكثـر مـن أخ، صديق طفولتـي، يموت وعينـاه غارقتان في الدمـوع منشـغلاً بالبحـث في وحل سـاحة المعركة عن أحشـائه كي يعيدهـا إلى بطنـه المفتوح.

آه يـا مادِمبـا ديـوب! لم أبـدأ التفكـير فعليـاً إلّا عندمـا انطفأت روحـك. حـين موتك فقـط، عنـد المغيـب، عرفـت وأدركـت أنني لـن أصغـي بعدهـا إلى صـوت الواجـب، الصـوت الآمـر، الصوت الـذي يفـرض الطريـق. لكـن الأوان كان قـد فات.

عندمـا مـتَّ وتوقفـتْ يـداك عـن الحركة أخـيراً، ونجـوتَ من الألم القـذر عنـد آخـر نَفَـس، فكّرتُ حينـذاك أنه لم يكن يجـدر بي أن أنتظـر. فهمـتُ متأخـراً بلحظـة واحدة أنـه كان علـيّ أن أذبحك من أول مـرة طلبـتَ منـي ذلـك، حين كانـت عينـاك لا تـزالان جافتين ويـدك اليـسرى تشـدّ على يدي. لم يكـن يجدر بي أن أتـركك تتألم مثل أسـد هرم وحيـد، تلتهمـه الضباع حيّاً، وأحشـاؤه خارجـه. تركتك تتوسّـل إليّ لأسـباب مغلوطـة، أفـكار مسـبقة الصنـع تلبـس حلّـة العظمـة لتبدو أفـكاراً نزيهة.

آه يـا مادِمبـا! كـم أنـدم عـلى عـدم قتلـك منـذ صبـاح المعركـة حـين كنـت تطلـب منـي ذلـك بلطـف، بصداقـة، وابتسـامتك في صوتـك! ذبحـك في تلـك اللحظة كان يمكـن أن يكـون آخر مزحة

أفعلها معك في الحياة، طريقة لكي نبقى فيها صديقين إلى الأبد. ولكن عوضاً عن القيام بذلك، تركتك تموت وأنت تشتمني، تبكي ويسيل لعابك، تصرخ وتتبرّز تحتك مثل طفل مجنون. باسم قوانين بشرية لا أعرف ماذا أسمّيها، تركتك لمصيرك البائس. لعلّي كنت أريد أن أنقذ روحي، أو ربما لأبقى مثلما أراد أولئك الذين ربّوني كما يجب أن أكون أمام الله وأمام البشر. ولكن أمامك يا مادِمبا لم أستطع أن أكون إنساناً. تركتك تلعنني وتجدّف لأنني لم أكن أعرف حينذاك أن أفكّر من تلقاء نفسي.

ولكن فور موتك بحشرجة خرجت من وسط أمعائك المكشوفة في الهواء الطلق يا صديقي الأكثر من أخّ، فور موتك عرفت، أدركت أنه لم يكن يجدر بي التخلّي عنك.

انتظرت قليلاً وأنا مستلق بالقرب من بقاياك أنظر إلى السماء الزرقاء، غامقة الزرقة، الذيل اللامع لآخر الطلقات الخطّاطة. وما إن ران الصمت فوق حقل المعركة الغارق في الدم، حتى بدأتُ أفكّر. لم تعد حينذاك سوى كومة لحم ميّتة.

رحت أقوم بما لم تستطع أن تقوم به طوال النهار بسبب يدك المرتجفة. جمعت بكل ورع أحشاءك التي كانت لا تزال ساخنة ووضعتها داخل بطنك الذي استحال كأساً مقدّسة. في الظلام، ظننت أنني أراك تبتسم لي وقررت أن أعيدك إلى أرضنا. في برد

الليـل، خلعـت سـترتي العسـكرية وقميـصي. أمـررت قميصي تحت جسـدك وعقـدت الكمّين فـوق بطنك، عقـدة مزدوجة شـددتها أيّما شـدّ حتـى تبقّعـت بدمك الأسـود. حملتك من خـصرك وأحضرتك إلى الخنـدق. حملتـك بـين ذراعـيّ كالطفـل، يا مـن هو أكثـر من أخ، يـا صديقـي، مشـيت ومشـيت في الوحل، في الشـقوق التـي حفرتها القذائـف، شـقوق لوثتهـا الميـاه المصبوغة بالـدم، أزعجـتُ الجرذان التـي خرجـت مـن جحورهـا كـي تتغـذّى باللحـم البـشري. وبينما كنـت أحملـك بين ذراعـيّ، بـدأت أفكّر مـن تلقـاء ذاتي وأنـا أطلب منـك المغفرة. عرفـت وفهمت بعد فـوات الأوان ما كان عـليّ القيام بـه عندمـا كنت تطلـب منـي وعينـاك جافتـان، كمن يطلـب خدمة مـن صديـق طفولتـه، كأنك تطلـب مني اسـتحقاقاً مـن دون مجاملة وبلطف. سـامحني.

II

مشيتُ طويلاً فوق الأخاديد، أحمل بين ذراعيّ مادِمبا الثقيل مثل طفل نائم. كنتُ هدفاً لم يكشفه الأعداء، مموّهاً تحت ضوء القمر المكتمل حتى وصلتُ إلى فتحة خندقنا الفاغر. حين رأيته من بعيد، بدا لي مثل شفرَين مفتوحين لفرج امرأة عملاقة. امرأة مفتوحة تمنح نفسها للحرب، للقذائف، ولنا نحن الجنود. كان هذا أول تفكير شائن سمحت لنفسي بالتفكير فيه. قبل موت مادِمبا، لم أكن أجرؤ على تخيّل شيء كهذا، لم أكن أجرؤ على أن أقول لنفسي إنني أرى الخندق الشبيه بفرج امرأة مترامي الأطراف يستقبلنا أنا ومادِمبا. كان داخلُ الأرض خارجَها، وداخلُ ذهني خارجَه، عرفت وفهمت أن بوسعي التفكير في كل ما أشاء شرط ألا يعرف الآخرون شيئاً مما أفكر فيه. حينذاك أغلقت على أفكاري داخل رأسي بعد أن راقبتها عن كثب، ويا لها من أفكار غريبة!

استقبلوني داخل بطن الأرض كبطل. كنت قد مشيت تحت ضوء القمر معانقاً مادِمبا من دون أن أرى سوى شريطٍ من أمعائه الطويلة كان قد أفلت من عقدة قميصي الذي يشدّ على خصره. حين شاهدوا الكارثة البشرية التي أحملها بين ذراعيّ، قالوا إنني شجاع وقوي. قالوا إنهم ما كانوا ليستطيعوا القيام بذلك، وربما كانوا ليتركوا مادِمبا ديوب للجرذان. ما كانوا سيجرؤون على لملمة أحشائه بورع داخل إناء جسده المقدّس. قالوا إنهم ما كانوا ليحملوه مسافة طويلة تحت ضوء قمر ساطع على هذا النحو بعلم الأعداء وتحت أنظارهم. قالوا إنني أستحق ميدالية، وسوف أُقلّد بوسام الصليب الحربي ويفخر بي أهلي، ويفخر بي مادِمبا الذي ينظر إليّ من السماء. وفكّرت حينذاك أنني لا أعبأ بالميدالية، لكن لن يعلم بذلك أحد. ولن يعرف أحد أيضاً أن مادِمبا توسّل إليّ ثلاث مرات كي أجهز عليه وبقيت أصمّ تجاه توسلاته الثلاثة، وبقيت غير إنسانيّ بدافع الخضوع لأصوات الواجب. لكنني كنت قد أصبحت حرّاً ولن أسمع أقوالهم بعد الآن، حرّاً ولن أطيع تلك الأصوات التي تطلب مني أن أكون لا إنسانياً عندما يجدر بي أن أكون إنسانياً.

III

داخل الخندق، كنت أعيش مثل الآخرين، أشرب وآكل مثلهم، أغنّي أحياناً مثل الآخرين. أغنّي بشكل أخرق والكل يضحك. كانوا يقولون لي: «أنتم عائلة ندياي لا تجيدون الغناء». يسخرون مني قليلاً، لكنهم يحترمونني. ما كانوا يعرفون رأيي بهم. كنت أراهم حمقى، أغبياء لأنهم لا يفكرون في شيء، هم الجنود، بيضاً كانوا أو سوداً، يقولون دائماً: «نعم». حين يأتيهم الأمر بالخروج من خندق الحماية لمهاجمة العدوّ على المكشوف، يقولون: «نعم». حين يُطلب منهم أن يتحولوا إلى وحوش لإخافة العدوّ، يقولون: «نعم». قال لهم القائد إن الأعداء يخافون من الزنوج المتوحشين، من آكلي لحوم البشر، من الزولو، فضحكوا. هم سعداء لأن العدو أمامهم يخاف منهم. هم سعداء لأنهم نَسَوا خوفهم. لهذا حين كانوا يبرزون من الخندق، البندقية في اليد اليسرى وفأس الأدغال في اليد اليمنى، مندفعين من باطن

الأرض، كانوا يخرجون وعيونهم تقدح جنوناً. قال لهم القائد إنهم محاربون عظماء، لهذا كانوا يحبون القتال وهم يغنون، ويتنفسون فيما بينهم بالجنون. لم يكن أحد من عائلة ديوب يرغب في أن يقال عنه إنه أقل شجاعة من ابن عائلة ندياي، لذلك وبمجرد سماعه صفّارة القائد أرمان التي تصمّ الآذان، كان يخرج من حفرته صارخاً كالوحش. المنافسة نفسها بين عائلة كيتا وسوماريه. الشيء نفسه بين عائلات ديالو وفايه، كاليه وتيون، ديانيه، كوروما، بِيّ، فاكولي، سال، ديينغ، سيك، كا، سيسّه، ندور، توريه، كامارا، با، فال، كوليبالي، سنوكو، سي، سيسوخو، درواميه، تراوريه. الجميع يذهبون إلى الموت من دون تفكير،لمجرد أن قال لهم القائد أرمان: «أنتم يا شوكولا[1] إفريقيا السوداء، أنتم أشجع الشجعان بالفطرة. فرنسا تعترف بجميلكم وتنظر إليكم بعين الإعجاب. لا تتحدث الصحف سوى عن مآثركم!» لذلك كانوا يحبون الخروج زحفاً ويذبحون باطّراد وهم يصرخون كالمجانين المسعورين، سلاحهم النظامي باليد اليسرى وفأس الأدغال الهمجيّ باليد اليمنى.

ولكن أنا ألفا ندياي فهمت تماماً كلمات القائد. لا أحد يعرف بماذا أفكر، أنا حرّ في التفكير كما أشاء. ما أفكر فيه هو أنهم لا يريدونني أن أفكر. كلمات القائد تخبئ وراءها ما لا يخطر

في البـال. فرنسـا وطـن القائـد تحتـاج إلينـا كمتوحشـين لأن هـذا لمصلحتهـا. تحتـاج أن نكون متوحشـين لأن العدو يخـاف من الفأس التـي نحملهـا. أنـا أعـرف، لقد فهمـت، ليس الأمـر معقـداً إلى هذا الحـدّ. فرنسـا وطن القائد تحتـاج إلى همجيتنـا، وبما أننـا مطيعون، أنا والآخريـن، نقـوم بدور الهمـج. نقطع لحم أجسـاد العدو، نكسـح، نقطـع الـرؤوس، نبقـر البطـون. الفـارق الوحيـد بين رفاقـي مـن عائـلات: توكولـور، سـيرير، بامبـارا، مالينكـه، سوسـو، هاوسـا، مـوسّي، مـاركاس، سـونينكه، سـينوفو، بوبـو، وغيرهـم مـن عائلة ولـوف، وبينـي أنـا ألفا نديـاي، أنني أصبحـت همجياً بعـد التبصّر والإمعـان في التفكـير. هـم لا يقومـون بدورهم إلّا لـدى خروجهم مـن الأرض، أمـا أنـا فألعب دوري معهـم في الخنـدق المحميّ فقط. كنـت أضحـك وأنا بينهـم، لا بل أغنّي بشـكل أخـرق، لكنهم كانوا يحترمونني.

بمجـرد خروجي مـن الخندق زاحفاً، بمجـرد أن تلدني الأرض صارخـاً، لم يكـن أمـام الأعداء سـوى الصمود. حـين كان يدقّ نفير العـودة، لم أكـن أعـود إلى الخندق البتـة. كنت أعـود في وقت لاحق، والقائـد كان يعـرف ذلـك ويتركنـي أفعـل، مندهشـاً برؤيتـي أعود حيّـاً دائـماً، مبتسـماً دائـماً. كان يتركني أفعـل ذلك حتـى عندما أعود متأخـراً، ذلـك لأننـي كنت أحـضر معي تـذكار النـصر إلى الخندق.

أحمل معي غنائم الحرب الهمجية. كنت أحضر معي دائماً في نهاية المعركة، في الليل الحالك أو في الليل الغارق في ضوء القمر والدم، بندقية أحد الأعداء ومعها يده. اليد التي حملتْها وحضنتْها، اليد التي نظّفتْها وشحّمتْها ولقّمتْها وأفرغتْها وأعادت تلقيمها. عندما كان يدقّ نفير العودة، كان القائد والرفاق الذين عادوا ليُدفنوا أحياء في حِمى خندقنا الرطب يطرحون سؤالين، أولهما: «هل سيعود ألفا ندياي حيّاً بيننا؟» والثاني: «هل سيعود ألفا ندياي ومعه بندقية واليد التي حملتها؟» كنت أعود دائماً إلى رحم الأرض بعد الآخرين، أحياناً تحت نيران العدوّ، سواء أكانت تعصف الريح أم تمطر أم تثلج كما يقول القائد، وبحوزتي دائماً بندقية أحد أفراد العدوّ واليد التي حملتها وعانقتها ونظّفتها وشحّمتها، اليد التي لقّمتها وأفرغتها وأعادت تلقيمها. أما القائد والرفاق الباقون الناجون الذين يسألون أنفسهم ذينك السؤالين في كل مرة بعد أمسيات الهجوم فقد كانوا يفرحون بسماع طلقات النار وصرخات الأعداء. كانوا يقولون لأنفسهم: «ها هو ألفا ندياي يعود إلى البيت، ولكن هل أحضر البندقية مع اليد المقطوعة التي كانت تحملها؟» بندقية ويد.

عند عودتي إلى رفاقي مع تذكاراتي، كنت أراهم مسرورين، راضين جداً عني. كانوا يحتفظون لي بحصة من الطعام وبقايا

السجائر. كانوا سعداء جداً برؤيتي أعود، حتى إنهم لم يسألوني يوماً كيف أفعل ذلك، كيف أحصل على بندقية العدو تلك ومعها اليد المقطوعة. كانوا سعداء جداً بحيث كنت أعود لأنهم يحبونني كثيراً. أصبحت تميمتهم الجالبة للحظ. كانت الأيادي التي أحضرها تؤكّد لهم أنهم لا يزالون أحياء ليوم آخر. لم يسألوني قط ماذا فعلت ببقية الجثة، كيف أصبت العدوّ، لم يكن ذلك يهمهم. ولا كيف قطعت اليد. كانت تهمّهم النتيجة وحسب، أي الهمجية. وكانوا يمزحون معي قائلين إن العدو المقابل خائف من دون شك منذ مدة، خائف جداً من رؤية أياديه المقطوعة. وكذلك قائدي ورفاقي، ما كانوا يعرفون كيف اصطدتها وماذا فعلت ببقية الأجساد على أرض الواقع. ما كانوا يتخيلون حتى ربع ما كنت أقوم به، ولا ربع خوف العدو الذي أمامنا.

حين أخرج من بطن الأرض أصبح غير إنسانيّ بخياري، أصبح غير إنسانيّ بعض الوقت. ليس لأن القائد أمرني بذلك، إنما لأنني فكرت في ذلك وأردته. حين أندفع خارج رحم الأرض، لا يكون في نيتي قتل العديد من أفراد العدوّ، إنما قتل واحد منهم، على طريقتي، برويّة، بهدوء، ببطء. حين أخرج من الأرض، بندقيتي في يدي اليسرى وفأس الأدغال في يدي اليمنى، لا أعبأ كثيراً برفاقي. لا أعود أعرفهم. يتساقطون من

حـولي، وجوههـم عـلى الأرض، واحـداً تلـو الآخـر، وأنـا أركض، أطلـق الرصـاص، ألقـي بنفـسي عـلى الأرض. أركـض وأرشـق الرصـاص وأزحـف تحت الأسـلاك الشـائكة. ربـما لكثرة مـا أطلق الرصـاص أقتـل عـدواً مصادفـة مـن دون أن أرغب في ذلـك. ربما. ولكـن رغبتـي هـي التلاحـم في القتال. لهذا السـبب أركـض، أطلق الرصـاص، وأرتمـي عـلى بطنـي، وأزحـف كـي أصـل أقـرب مـا يكـون إلى العـدوّ المقابـل. حـين يصبـح خندقهـم على مرمـى نظري لا أعـود أفعـل شـيئاً سـوى الزحـف. ثـم شـيئاً فشـيئاً، أتوقف عن الحركـة تقريبـاً. أتظاهـر بالمـوت. أنتظر بهـدوء كي أمسـك أحدهم، أن يخـرج جنـدي مـا من حفرتـه. أنتظـر فترة اسـتراحة المسـاء، فترة التراخـي، عندمـا ينتهـون مـن إطـلاق الرصاص.

عنـد المسـاء بعـد أن يتوقـف إطـلاق الرصـاص، يخـرج دائـماً أحدهـم مـن حفـرة القذيفـة التي التجـأ إليها كـي يعـود إلى خندقه. حينـذاك، كنـت أقطـع باطن ركبتـه بفـأسي. الأمر في غاية البسـاطة، فهـو يظننـي ميتـاً. العـدو المقابـل لا يـراني، أكـون جثة بـين الجثث. بالنسـبة إليـه، عـدت مـن المـوت كـي أقتلـه. لهـذا يخـاف، يصـاب بالذعـر، حتـى إنـه لا يـصرخ حـين أقطـع باطـن ركبته. يهـوي على الأرض وينتهـي أمـره. عندئـذ، أجـرّده مـن سـلاحه، ثـم أكمّمـه وأوثـق يديـه وراء ظهـره.

أحياناً يكون الأمر سهلاً، وأحياناً أخرى أكثر صعوبة. بعضهم لا يرضخ، وبعضهم الآخر لا يريد أن يصدّق أنه سوف يموت، وبعضهم أيضاً يحاول التملّص. حينئذ كنت أصرعهم بضربة واحدة من دون ضجّة، فأنا لم أبلغ سوى العشرين من العمر، وأنا كما يقول القائد: «قوة الطبيعة». بعدها كنت أربطهم إما بكمّ بزّتهم العسكرية وإما بشريط حذائهم، ثم أسحبهم على مهل وأنا أزحف في الأرض المحايدة كما يقول القائد عن الأرض بين الخندقين الكبيرين، أزحف في حفر القذائف وغدران الدماء. سواء كانت هناك رياح أو مطر أو ثلج، كما يقول القائد، أنتظر أن يستيقظ، أنتظر بصبر أن يستيقظ عدوي المقابل إذا كنت قد صرعته بضربة. أما إذا تركني ذاك الذي جررته إلى حفرة القذيفة ظاناً أنه يخدعني، أنتظر حتى أستعيد أنفاسي. أنتظر أن نهدأ نحن الاثنين. بالانتظار أبتسم له تحت ضوء القمر والنجوم، كي لا يتحرك كثيراً. ولكن حين أبتسم له أشعر أنه يتساءل في سرّه: «ولكن ماذا يريد مني هذا الهمجيّ؟ ماذا يريد أن يفعل بي؟» هل يريد أن يأكلني؟ هل يريد أن يغتصبني؟» أنا حرّ في تصوّر ما يفكّر فيه تجاهي العدو المقابل، لأنني أعرف وفهمت. حين أراقب عينيّ العدو الزرقاوين، أرى غالباً الهلع من الموت، من الوحشية، من العنف، من أكل لحوم البشر. أرى في عينيه ما قيل

لـه عنـي وصدّقـه من دون أن يكـون قد التقـاني في السـابق. أظن أنه حـين يـراني أنظـر إليـه مبتسـماً، يفكّـر أنهـم لم يكذبـوا عليـه، وأنني بأسـناني البيضـاء في الليـل، سـواء كان مقمـراً أو حالـكاً، سـوف ألتهمـه حيّـاً، أو أفعـل بـه أسـوأ من ذلـك بكثير.

الأفظـع يحـدث حـين أسـتردّ أنفـاسي وأبـدأ تجريـد العـدو المقابـل مـن لباسـه. مـا إن أفـكّ أزرار بزّتـه العسـكرية حتـى أرى عينـيّ العـدو الزرقاويـن تغشـيهما الدمـع. هنـا كنـت أشـعر أنـه خائـف مـن الأسـوأ. سـواء كان شـجاعاً أو مذعـوراً، مقدامـاً أو جبانـاً، في اللحظـة التـي أفكّ أزرار بزّته العسـكرية ثـم قميصه كي أعـريّ بطنـه الأبيـض الناصـع تحت ضـوء القمر أو تحـت المطر، أو تحـت الثلـج المتسـاقط برفق، كنت أشـعر حينـذاك أن عينـيّ العدو المقابـل تخبـوان قليـلاً. الـكل يتشـابهون، فارعـو الطـول، قصـار القامـة، المكتنـزون، الشـجعان، الجبنـاء، المتبجحـون... حين كانوا يرونـنـي أنظـر إلى بطونهم البيـض الخافقـة، تنطفئ نظراتهـم، كلهم على السـواء.

حينـذاك، كنـت أسـتجمع حـواسي قليـلاً وأفكـر في مادِمبـا ديـوب. وفي كل مـرة أسـمعه داخـل رأسي يتوسـلّ إليّ أن أذبحـه، وأفكـر أنـني كنت لا إنسـانياً حـين تركته يتوسّـل إليّ ثـلاث مرات. أظـن أنني سـأكون هـذه المرة إنسـانياً، لـن أنتظر أن يرجـوني عدوي

المقابل ثلاث مرات كي أجهز عليه. ما لم أفعله من أجل صديقي، سأفعله من أجل عدوي بدافع إنسانيّ.

حين كان العدو المقابل يشاهدني أمسك فأسي، كانت عيناه الزرقاوان تنطفئان كلياً. في أول مرة، وجّه لي أحدهم ركلة قبل أن يحاول الوقوف والهرب. مذ ذاك صرت أحرص على إيثاق عراقيب الأعداء الصغار. ولذلك ما إن أمسك فأسي بيدي اليمنى حتى يبدأ العدو المقابل بالتخبط كالمسعور ظناً أن باستطاعته الفرار مني، لكن ذلك مستحيل. لا شك أنه يعرف أنه لم يعد بإمكانه الهروب لكثرة ما شددت قيوده، لكنه لا يزال يأمل. أقرأ ذلك في عينيه الزرقاوين كما قرأت التوسّل في عينيّ مادِمبا السوداوين كي أختصر آلامه.

بطن العدو المقابل أبيض عارٍ، يعلو ويهبط بشكل متقطّع. يلهث ويصرخ فجأة بصمت كبير من وراء الكمّامة التي شددتها بإحكام كي تسدّ فمه. يصيح بصوت مكتوم حين آخذ كل ما في داخل جوفه وأضعه خارجاً للمطر والريح والثلج، أو لضوء القمر. في تلك اللحظة، إن لم تنطفئ عيناه إلى الأبد، أستلقي إلى جانبه، أدير وجهه نحو وجهي وأراه ينازع قليلاً، ثم أذبحه، بنظافة، بإنسانية. في الليل، كل الدماء سوداء.

IV

بحـقّ الله، في يـوم موت مـا دِمبا ديوب، لم أسـتغرق وقتـاً طويلاً حتـى عثرتُ عليه مبقـور البطن في حقل المعركة. أنـا أعرف، وفهمت مـا الـذي حـدث. حكـى لي مادِمبـا قبـل أن تبدأ يـداه ترتجفـان، حين كان لا يـزال يطلـب مني بلطـف ومـودة أن أجهز عليه.

كان في خضـم هجومـه عـلى العـدوّ المقابـل، البندقيـة في يـده اليـسرى والفـأس في يـده اليمنـى، كان في غمـرة القتـال، في ذروة تمثيليـة الهمجيـة، حـين صـادف أحـد أفـراد العـدو المقابـل متظاهراً بالمـوت. انحنـى كـي ينظـر إليـه، عابـراً دونـما اهتـمام قبـل أن يتابع سـيره إلى الأمـام. توقـف كي ينظـر إلى العـدوّ المتظاهـر بالموت. غير أنـه أمعـن النظـر في وجهـه لأن الشـكوك راودتـه لحظـةً قصـيرة. لم يكـن وجـه العـدوّ المقابـل رماديـاً مثـل وجـوه الموتـى البيـض أو السـود. كان يبـدو عـلى ذاك الوجه أنـه يمثّـل دور الميـت. كان عليه مـن دون إبطـاء أن يجهـز عليـه بفأسـه، فكّـر مادِمبـا. يجـدر بـه ألا

يكـون متهاونـاً. عليـه أن يعيد قتل هـذا العدو المقابـل نصف الميت، مـن بـاب الحيطـة كـي لا ينـدم لاحقـاً عـلى أخ في السـلاح، أو عـلى رفيـق يمـرّ مـن الطريـق نفسـها ويتلقـى ضربـة مؤذية.

بينـما كان يفكّـر في رفاقـه في السـلاح الذيـن يجـدر إنقاذهـم مـن العـدو نصـف الميـت، بينـما كان يتنبـأ بالضربـة المؤذيـة التي قد تصيـب آخريـن غـيره، تصيبنـي أنـا ربـما، مـن كنـت أكثـر مـن أخ ويتبعـه مـن مسـافة قريبـة جـداً، بينـما كان يقـول لنفسـه إنـه يجـدر بـه أن يكـون حـذراً مـن أجـل الآخريـن، لم يكـن حـذراً مـن أجل نفسـه. حكـى لي مادِمبـا برقّـة ومـودّة وكان لا يـزال مبتسـماً، كيف فتـح العـدوّ عينيـه عـلى اتسـاعهما قبـل أن يمـزّق بطنه من الأسـفل إلى الأعـلى، بحركـة مباغتـة بحربتـه التـي كان يحتفظ بهـا مخبأة تحت ثنيـة معطفه الواسـع. مادِمبـا الذي كان لا يزال يبتسـم مـن الضربة التـي وجههـا إليـه العدوّ نصـف الميت، حكـى لي بهدوء أنـه لم يكن بيـده حيلـة. روى لي ذلـك في البدايـة حـين لم يكن قد نـال منه الألم، بوداعـة، قبيـل أن يتوسّـل إليّ للمـرة الأولى أن أجهـز عليه. توسّـله الأول الـذي وجّهـه إليّ، أنـا الأكثـر مـن أخ ألفـا ندياي، آخـر أبناء الرجـل العجوز.

حتـى قبـل أن يتمكـن مـن الـردّ، وقبـل أن يثـأر لنفسـه، هرب العـدوّ الـذي كُتبـت لـه الحيـاة إلى خطوطـه. ما بـين التوسّـل الأول

والثاني، طلبتُ من مادِمبا أن يصف لي العدو المقابل الذي نزع أحشاءه. «عيناه زرقاوان»، همس لي مادِمبا، بينما كنت ممدّداً إلى جانبه أنظر إلى السماء تخترقها الأخاديد المعدنية. ألححتُ. «بحقّ الله، كل ما أستطيع أن أقول لك إن عينيه زرقاوان». ألححت أكثر فأكثر. «هل هو طويل؟ هل هو قصير؟ هل هو وسيم؟ هل هو قبيح؟». وعند كل سؤال كان مادِمبا يجيبني: «ليس العدوّ المقابل الذي يجدر بك قتله، لقد فات الأوان، كان العدو محظوظاً بالبقاء على قيد الحياة. من عليك قتله الآن والإجهاز عليه هو مادِمبا».

ولكنني بحقّ الله، لم أصغِ حقاً إلى مادِمبا صديق طفولتي الذي كان أكثر من أخ. بحقّ الله، لم أفكر سوى في نزع أحشاء العدو ذي العينين الزرقاوين نصف الميت. لم أفكر سوى في بقر بطن العدو المقابل، وأهملت صديقي مادِمبا ديوب الحبيب. أصغيت إلى صوت الانتقام. كنت لا إنسانياً مذ بدأ مادِمبا يتوسّل إليّ للمرة الثانية ويقول لي: «انسَ العدو ذا العينين الزرقاوين الآن. اقتلني، فأنا من يتألم كثيراً. لنا العمر نفسه، وتم طهورنا في اليوم نفسه. ترعرعتَ في بيتي، كبرتُ تحت نظرك وكبرتَ تحت نظري. لهذا يمكنك أن تهزأ بي، وأستطيع أن أبكي أمامك. أستطيع أن أطلب منك أي شيء. نحن أكثر من إخوة لأنهم اختارونا كشقيقين. أرجوك يا ألفا، لا تتركني أموت هكذا، أحشائي في

الهـواء، وبطنـي تنهشـه الآلام الشـديدة. لا أعـرف إن كان طويلاً أو قصـيراً، وسـيماً أو قبيحـاً، هـذا العدو صاحـب العينـين الزرقاوين. لا أعـرف إن كان يافعـاً مثلنـا أو في سـنّ آبائنـا. لقـد كان محظوظـاً ونجـا. لم يعـد الأمـر هامّـاً الآن. إذا كنـت أخـي، صديـق طفولتي، إذا كنـت ذلـك الشـخص الـذي عرفتـه دائـماً وأحبه كما أحـب أمي وأبي، أتوسّـل إليـك مـرة ثانيـة أن تذبحني. هل تتسـلّى بسـماعي أئنّ كالولـد الصغـير؟ برؤية كرامتـي المجلّلة بالعار تخجـل مني هكذا؟»

لكنّنـي رفضـت. آه، لقـد رفضت. سـامحني يـا مادِمبـا ديوب، سـامحني يـا صديقـي، يـا مـن هـو أكثر مـن أخ لأننـي لم أصـغِ إليك بقلبـي. عرفـت وفهمـت، لم يكـن يجـدر بي أن أحـوّل ذهنـي نحـو العـدو المقابـل ذي العينـين الزرقاويـن. أعرف وأفهـم، لم يكن يجدر بي التفكير بفي ا يسـتدعي الثأر في رأسي الذي شـقّه بكاؤك كالأرض المحروثـة، وبذرتـه بصرخاتـك، قبل أن تكـون ميتاً حينـذاك. بعدها سـمعت صوتـاً قويـاً مهيبـاً أجـبرني عـلى تجاهـل آلامـك: «لا تجهز عـلى أفضـل صديـق لـك، عـلى من هـو أكثـر مـن أخ. خلاصـه من حياتـه ليـس من واجبـك. إيـاك أن تظن نفسـك يـد الله. أو أن تظن نفسـك يـد إبليـس. ألفا نديـاي، هـل ستسـتطيع أن تمثل أمـام والد ووالـدة مادِمبـا وأنـت عـارف أنـك أنت مـن قتلتـه، أنـك أنت من أكمـل عمـل العـدوّ ذي العينـين الزرقاوين؟»

لا، أنـا أعـرف، وفهمـت، لم يكـن يجـدر بي أن أصغـي إلى ذلك الصـوت الـذي ضـجّ في رأسي. كان عـليّ أن أسـكته قبـل فـوات الأوان. كان عـليّ أن أفكـر مـن تلقـاء نفـسي. كان عـليّ يـا مادِمبا أن أجهـز عليـك باسـم الصداقـة كـي تتوقـف عـن البـكاء، والتحرّك والتلـوّي وأنـت تحـاول أن تُدخـل إلى داخل بطنك مـا كان قد خرج منـه، تستنشـق الهـواء مثـل سـمكة تـم اصطيادها تـوّاً.

V

بحـقّ الله، لقـد كنـت لا إنسـانياً. لم أصغِ إلى صديقـي، أصغيت إلى عـدوي. لهـذا، حـين كنـت أمسـك بأحـد أفـراد العـدوّ المقابـل وأقـرأ في عينيـه الزرقاويـن الصرخـات التـي لا يسـتطيع فمـه أن يطلقهـا نحـو سـماء الحـرب، حـين لا يعـود بطنه المكشـوف سـوى عصيـدة مـن اللحـم النـيء، أسـتلحق الوقـت الضائـع، أقضي على الخصـم. كنـت أقطـع عنقـه عنـد مناجاتـه الثانيـة كـما تُقطـع أعناق خـراف الأضحـى. مـا لم أفعله مـن أجـل مادِمبا، كنـت أفعله لأجل عـدوي ذي العينـين الزرقاويـن، باسـم الإنسـانية المسـتعادة.

ثـم آخذ بندقيتـه بعد أن أقطع يـده اليمنى بالفـأس. وكان ذلك يسـتغرق وقتـاً طويـلاً، طويـلاً جـداً، وهـو أمر شـاقّ وأليـم. حين أعـود إلى أرضنـا زحفـاً، عابـراً تحـت الأسـلاك الشـائكة والأوتـاد الخشـبية المحيطـة بالوحـل اللـزج، حـين أعـود إلى خندقنـا المفتـوح كالمـرأة بوجـه السـماء، أكـون مغطـى بـدم العـدوّ المقابـل. أكـون

كالتمثـال المجبـول مـن الطـين والدم، تفـوح مني رائحـة نتنة، تجعل الجـرذان نفسـها تهـرب مني.

رائحتـي هـي رائحة المـوت. للمـوت رائحة الأحشـاء المقذوفة خارج إناء الجسـد المقدّس. في الهواء الطلق، تفسـد أحشـاء الجسـم، بشريّـا كان أو حيوانيّـا. مـن الإنسـان الأكثـر ثـراء إلى الأكثـر فقـراً، مـن المـرأة الأكثـر جمالاً إلى الأكثـر قبحاً، مـن الحيـوان الأكثر حكمة إلى الأكثـر غبـاوة، مـن الأكثـر قـوة إلى الأكثـر ضعفـاً. المـوت، هـو رائحة أحشـاء الجسـم المتفسـخة، حتـى الجرذان ينتابهـا الخوف حين تشـعر بوصـولي زاحفـاً تحـت الأسـلاك الشـائكة. كانت تخـاف من رؤيـة المـوت يتحـرك ويتقـدّم نحوهـا، لهـذا كانـت تهـرب. كانـوا يهربـون مني في الخنـدق أيضاً، حتى بعد أن أغسـل جسـدي وثيابي، حتـى عندمـا كنـت أظن نفـسي قـد تطهّرت.

VI

بعـد اليد الرابعة بـدأ رفاقي وأصدقائي في الحـرب يخافونني. في البدايـة، ضحكـوا بكل سـذاجة معي، روّحـوا عن أنفسـهم برؤيتي أعـود إليهـم ببندقية العدو ويـده. كانوا راضين جـداً عنّي حتى إنهم فكّـروا في منحـي ميداليـة أخرى. ولكن عنـد اليد الرابعـة، ما عادوا يضحكـون صراحـة. بـدأ الجنـود البيـض يفكّـرون، قـرأت ذلك في أعينهـم: «هذا الشـوكولا غريب الأطـوار فعلاً». الآخـرون، الجنود الشـوكولا مـن إفريقيـا الغربيـة مثـلي، بـدأوا يفكّرون، قـرأت ذلك في أعينهـم: «ألفـا ندايـاي هـذا مـن قرية غانديـول بالقرب من سـان لويـس في السـنغال هـو غريـب الأطـوار حقـاً. منذ متى هـو غريب الأطـوار هكذا؟»

التوبـاب[2] والشـوكولا، كـما يسـمّينا القائد، اسـتمروا في تربيت ظهـري لكـن ضحكاتهـم وابتسـاماتهم تغـيّرت. بـدأوا يخافـون مني، يخافـون كثـيراً، كثـيراً جـداً. بدأوا يتهامسـون بعـد اليـد الرابعة.

مع الأيادي الثلاث الأولى، كنت بطلاً أسطورياً، يحتفلون بي عند عودتي، يقدّمون لي حصّة وافرة من الطعام، يخبئون لي السجائر. يساعدونني في الاستحمام بدلاء كبيرة من المياه، يساعدونني في تنظيف بزّتي العسكرية. كنت أقرأ العرفان في أعينهم. فقد كنت ألعب عوضاً عنهم دور الهمجيّ الذي تجاوز الحدّ، الهمجيّ تحت الخدمة الآمرة. لا شك أن العدوّ المقابل كان يرتعد خوفاً من رأسه وحتى أخمص قدميه.

في البداية، لم يكن رفاق السلاح يهتمّون برائحة الموت التي تفوح مني، رائحة جزّار اللحم البشري، ولكن ابتداء في اليد الرابعة توقفوا عن شمّي. استمروا في إعطائي الوجبات الوفيرة، وفي تقديم أعقاب سجائر التقطوها من هنا وهناك، في إعارتي غطاء كي أتدفأ، ولكن كانوا يضعون قناع الابتسامة على وجوههم، وجوه الجنود المرتعبين. ما عادوا يساعدونني في الاستحمام بالدلاء الكبيرة، تركوني أنظّف بزّتي العسكرية بنفسي. فجأة، ما عاد أحد يربّت كتفي وهو يمازحني. بحقّ الله، أصبحت منبوذاً.

حينذاك بدأوا يحتفظون لي بقصعة وإناء وشوكة وملعقة ويتركونها لي في زاوية الملجأ. حين كنت أعود متأخراً في أمسيات أيام الهجوم، بعد الآخرين بوقت طويل، سواء كانت تعصف الريح أو تمطر السماء أو تثلج، كما يقول القائد، كان الطباخ يطلب

منـي أن أذهـب لإحضـار أغـراضي. وحين يصـبّ لي الحسـاء، كان يراعـي بحـذر شـديد ألا تلامـس مغرفتـه قعـر قصعتـي أو جوانبها أو الأطـراف.

سرت الإشـاعة، سرت وهـي تتعـرّى. شـيئاً فشـيئاً، أصبحـت فاحشـة. في البدايـة أُلبسـت بأناقـة، تَبهرجـت، قُلّـدت بالميداليات، تلك الإشـاعة الصفيقـة، انتهى بهـا المطاف لتركض عاريـة المؤخرة. لم ألاحـظ ذلـك عـلى الفـور. لم أكـن أفـرّق جيـداً، لم أكن أعـرف ما الـذي تتآمر عليـه. الجميع كانـوا يرونها تركض أمامـي ولم يصفها لي أحـد فعليـاً. لكنني باغـتّ أخيراً كلامـاً يُهمس، وعرفـت أن غريب الأطـوار قـد صـار مجنونـاً، ثم صـار المجنـون سـاحراً. أنـا، الجندي السـاحر.

فليحجمـوا عـن إخبـاري إذن بأنهـم لا يريدون مجانين في سـاحة المعركـة، ولكن بحـقّ الله، المجنون لا يهابُ شـيئاً. الآخـرون، البيض أو السـود، يمثّلـون دور المجانـين، يلعبـون دور الجنـون المسـعور كـي يتمكنـوا مـن أن يلقـوا بأنفسـهم مطمئنين أمـام رصـاص العدوّ المقابـل. ذلـك يسـاعدهم على الاندفـاع نحو المـوت مـن دون الكثير مـن الخـوف. يجـدر بالمـرء أن يكـون مجنونـاً كـي يطيـع القائـد أرمان حـين يطلـق صفـارة الهجـوم وهـو عـارف أن مـا مـن فرصـة واحدة تقريبـاً كـي يعود المرء بعدها حيّـاً إلى أرضنا. بحـقّ الله، يجب أن تكون

مجنوناً كي تدفع نفسك من باطن الأرض وتزأر مثل الوحش أمام رصاص العدوّ. القذائف الكبرى المتساقطة من السماء المعدنية لا تخاف الصرخات، لا تخاف اختراق الرؤوس ولحم الأجساد، لا تخاف كسر العظام وقطع نفس الحياة. الجنون الموقت يسمح بنسيان حقيقة الرصاص. الجنون الموقت هو شقيق الشجاعة في الحرب.

ولكن حين توحي بالجنون باستمرار، أنت تثير خوفهم. حتى أصدقاؤك في الحرب، لا يعودون يرونك حينذاك الأخ الشجاع ومخادع الموت، إنما صديقه الحقيقيّ، شريكه في الجرم، من هو أكثر من أخ له.

VII

أصبحت في نظر الجميع، الجنود السود والبيض، وجه الموت. أنا أعرف، لقد أدركت ذلك. في نظر الجنود التوباب أو الجنود الشوكولا من هم مثلي، أنا ساحر شرير، أفترس أحشاء الناس، أنا ملعون. وإنني هكذا منذ الأزل، لكن الحرب كشفتني. ادّعت الإشاعة العارية أنني أكلت أحشاء مادِمبا ديوب من هو أكثر من أخي، حتى قبل موته. الإشاعة الصفيقة قالت: يجدر أخذ الحذر مني. الإشاعة ذات المؤخرة العارية قالت إنني ألتهم أحشاء الأعداء، وكذلك أحشاء الأصدقاء. الإشاعة الصفيقة قالت: «انتبهوا! حذارِ! ماذا يفعل بالأيادي المقطوعة؟ يريها لنا ثم تختفي من الوجود. انتبهوا! واحذروا».

بحقّ الله لقد رأيت، أنا ألفا ندياي، ابن الرجل العجوز، رأيت الإشاعة تلاحقني، نصف عارية، صفيقة، مثل فتاة عاهرة. مع ذلك، الجنود التوباب والجنود الشوكولا الذين كانوا يرون

الإشاعة تلاحقني، وكانوا ينزعون عنها رداءها، ويقرصونها من ردفيها وهم يتضاحكون، استمروا في الابتسام لي، والحديث معي وكأن شيئاً لم يكن، ودودون في الظاهر، لكنهم مرتعبون في دواخلهم، حتى أكثرهم فظاظة، حتى أكثرهم صلابة، حتى أكثرهم بسالة.

حين كان القائد يستعد لإطلاق نفير الخروج من باطن الأرض كي نلقي بأنفسنا مثل الوحوش، مجانين موقتاً تحت وابل البذار المعدني الصغير غير العابئ بصيحاتنا، لم يعد أحد يرغب في الوقوف إلى جانبي. لم يعد أحد يجرؤ على أن يجانبني في صخب الحرب لدى الخروج من أحشاء الأرض الحارّة. لم يعد أحد يحتمل السقوط بنيران العدوّ المقابل بالقرب منّي. بحقّ الله، أصبحت وحيداً في الحرب.

كان هذا ثمن أيادي العدو بعد اليد الرابعة، العزلة. العزلة وسط الابتسامات والغمزات وكلمات تشجيع رفاقي الجنود السود أو البيض. بحقّ الله، ما كانوا يتمنون أن يجذبوا إليهم العين الحاسدة للجندي الساحر الشرير، نحس رفيق الموت. أعرف ذلك، لقد أدركته. هم لا يطيلون التفكير، لكن من المؤكد أنهم يفكّرون أن لكل شيء وجهين. قرأت ذلك في عيونهم. يعتقدون أن آكلي أحشاء البشر طيبون حين

يكتفون بالتهام أحشاء العدوّ، لكن آكلي الأرواح ليسوا طيبين عندما يأكلون أحشاء رفاق السلاح. حين يكون هناك جنود سحرة أشرار، لا أحد يمكنه أن يعرف. يفكّرون أنهم يجب أن يكونوا في غاية الحذر مع الجنود السحرة، عليهم مهادنتهم والابتسام لهم والتحدث معهم في مواضيع شتّى بكل تهذيب، ولكن من بعيد. ينبغي عدم الاقتراب منهم البتّة، عدم لمسهم، عدم ملامستهم خطأ، وإلا مصيرهم الموت الحتميّ، وإلا كانت النهاية.

لهذا السبب، وبعد بضع أياد، حين أطلق القائد أرمان صفير الهجوم، وقفوا في الاتجاهين على مسافة عشر خطوات واسعة مني. بعضهم، وقبل الخروج صارخين من باطن الأرض الحارّ، كان يتجنب النظر إليّ، يتفادى أن تقع أنظاره عليّ. كانوا يخافون أن تلامسني نظراتهم بمجرد لمس، وكأن من ينظر إليّ تلامس عينه وجه الموت وذراعَيه ويدَيه وظهره وأذنيه وساقيه. وكأن من ينظر إليّ قد لاقى الموت حتماً.

يبحث الإنسان دائماً عن أسباب سخيفة للأحداث. هكذا تحدث الأمور، هكذا تصبح أسهل. أعرف ذلك وأدركه، بوسعي الآن أن أفكر كما يحلو لي. رفاق المعركة، بيضًا كانوا أو سودًا، يحتاجون إلى الإيمان بأن الحرب لا تعرّضهم للقتل،

إنـما العـين الشريـرة. يحتاجـون إلى الإيـمان بـأن رصاصـة مـن بين آلاف الرصاصـات التـي يطلقهـا العـدوّ المقابـل ليسـت هـي التي ستقتلهم مصادفـة. هـم لا يحبون المصادفـة، المصادفـة عبثية جداً. يريـدون مسـؤولاً، يفضّلـون الظـنّ أن رصاصـة العـدوّ وجّههـا وأرشـدها شـخص شريـر، هـذا الشريـر خبيـث النيـات هـو أنـا. بحـقّ الله، هـم قلـما يفكـرون، وإن فكـروا فذلـك عـلى نحـو أخـرق. إذا كنـت لا أزال حيّاً بعـد كل تلـك الهجـمات ولم أصـب بـأيّ رصاصـة، فذلـك لأننـي جنـديّ سـاحر، هـذا مـا يعتقدون. يفكّـرون في السـوء أيضـاً. يقولـون إن الكثـير مـن رفـاق الحـرب ماتـوا بسـببي، لأنهـم أصيبـوا بطلقـات كانـت موجّهـة إليّ أصلاً.

لهـذا السـبب كان بعضهـم يبتسـم لي بريـاء. لهـذا السـبب كان بعضهـم الآخر يشـيح بنظره عني مـا إن أظهر، وآخـرون يغمضون أعينهـم كـي لا تلامسـني نظراتهـم، كي لا تطـرف أعينهـم نحوي. أصبحـت محرّمـاً مثـل الطوطم[3] بحـقّ الله.

طوطـم عائلـة مادِمبـا ديـوب ذاك المتبجـح الطـاووس. كان يقـول لي: «الطـاووس». وأنا كنـت أردّ عليـه: «الغرنوق المتـوّج[4]. طوطمـك طـير أمـا طوطمـي فهـو وحـش. طوطـم عائلـة ندياي الأسـد، وهـو أكثـر رفعة مـن طوطـم عائلة ديـوب». كنت أسـمح لنفسـي بـأن أعيد على مسـمع مادِمبـا ديوب الـذي كان أكثـر من أخ

أن طوطمه مضحك. هذه الطريقة في المزاح حلّت محل الحرب والثأر بين عائلتَينا. المزاح بين الأقارب[5] ينفع في غسل الإهانات القديمة بالضحك والسخرية.

لكن الطوطم شيء أكثر أهمية، شيء محرّم. لا يجوز أكله، بل يجب حمايته. يمكن لأفراد عائلة ديوب أن يحموا طاووساً أو غرنوقاً متوّجاً من الخطر مجازفين بحياتهم لأنه طوطمهم. ولكن عائلتي لا تحتاج إلى حماية أسودها من الخطر. الخطر لا ينال الأسد مطلقاً. ولكن يقال إن الأسود لا تأكل أحدًا من عائلة ندياي البتة. والحماية تسري في كلا الاتجاهين. لا يمكنني أن أمنع نفسي من الابتسام حين أفكر أن أفراد عائلة ديوب لا يخافون المخاطرة في أن يلتهمهم طاووس أو غرنوق متوّج. لا أستطيع أن أمنع نفسي من الابتسام حين أعيد التفكير في مادِمبا ديوب الذي كان يضحك عندما أقول له إن عائلة ديوب لم تكن حاذقة جداً حين اختارت الطاووس والغرنوق المتوّج طوطماً. «أفراد عائلة ديوب متبجحون مغفلون، مثل الطواويس. يتظاهرون بالفخر لكن طوطمهم لا يعدو أن يكون أكثر من طير متكبّر». هذا ما كان يُضحك مادِمبا عندما كنت أريدأن أمازحه. كان مادِمبا يكتفي بالردّ قائلاً: «لسنا نحن من نختار الطوطم، الطوطم هو الذي يختارنا».

واأسفاه! حدثته مرة أخرى في صباح موته عن طوطمهم الطير المتكبِر، قبل أن يطلق القائد أرمان نفير الهجوم بقليل. لهذا اندفع أول واحد من بين الكلّ، وخرج من باطن الأرض صارخاً باتجاه العدوّ المقابل، كي يُثبت لنا، لي ولمن كانوا في الخندق أنه ليس متبجّحاً، كي يريني شجاعته. بسببي خرج في المقدّمة. بسبب الطواطم، بسبب كلام المزاح بين الأقارب، وبسببي أنا، بُقر بطن مادِمبا ديوب من قِبل عدوّ نصف ميّت أزرق العينين في ذلك اليوم.

VIII

في ذلك اليوم، لم يمعن مادِمبا ديوب في التفكير، على الرغم من علمه كلّه ومعرفته كلّها. أنا أعرف، ولقد أدركت، ما كان يجدر بي الاستهزاء بطوطمه. حتى ذلك النهار، لم أكن أفكّر كثيراً، لم أكن أفكر في ما سأقول إلا نصف تفكير. لا يجوز أن يدفع المرء صديقه من هو أكثر من أخ إلى الخروج من باطن الأرض صارخاً أقوى من الآخرين. لا يجوز أن تحدو برفيقك الأكثر من أخ إلى الجنون الموقت في مكان لا يمكن لطائر الغرنوق المتوّج أن يبقى فيه على قيد الحياة لحظة واحدة، في حقل معركة لا ينبت فيه عرق أخضر، ولا حتى شُجيرة، كأن آلافًا مؤلفة من الجراد الحديدي أتت عليه تقرضه من دون توقف شهوراً وشهوراً. حقل بُذر بملايين من حبوب الحرب المعدنية الصغيرة العقيمة. حقل معركة مشجوج ومخدود لأكلة اللحوم.

وها أنا أرى نفسي الآن مذ قررت أن أفكّر من تلقاء نفسي من دون أن يمنعني شيء عن التفكير، أدركت أنني أنا من قتلت

مادِمبا ديوب وليس العدو المقابل ذا العينين الزرقاوين. هذا أنا، أعرف وفهمت لماذا لم أجهز على مادِمبا ديوب عندما كان يتوسّل إليّ أن أفعل ذلك. «لا يمكن أن تقتل إنساناً مرتين، لا شك أن ذهني همس لي حينذاك بصوت خافت، خافت جداً. ها قد قتلت تواً صديق طفولتك حين هزئت من طوطمه في يوم المعركة وألقى بنفسه أول واحد خارج بطن الأرض. لا شك أن ذهني همس لي بصوت خافت، خافت جداً: «انتظر، انتظر قليلاً. بعد قليل، عندما سيموت مادِمبا من دون أن تساعده في ذلك، سوف تفهم. سوف تفهم أنك لم تنهِ عذابه بينما كان يطلب منك ذلك، كي لا تُلام على شيء لأنك أنهيت العمل القذر الذي بدأته. انتظر قليلاً، لا شك أن ذهني همس لي، سوف تفهم بعد قليل أنك أنت من كان عدوّ مادِمبا ديوب المقابل صاحب العينين الزرقاوين. قتلته بكلامك، بقرت بطنه بكلامك، التهمت أحشاءه بكلامك».

من هنا جاء الاعتقاد بأنني ملعون، مفترس أرواح، لا فرق بين هذا وذاك تقريباً، ليس هناك خلاص. ولأنني بدأت أفكّر مذ ذاك كما يحلو لي، صار بوسعي أن أبوح لنفسي بكل شيء داخل رأسي. نعم، لقد قلت لنفسي: لا شك أنني ملعون، آكل أحشاء الناس. لكن بعد أن فكّرت في ذلك على الفور، لم أصدّق شيئاً كهذا، إنه منافٍ للعقل. لم أكن حينذاك أنا من يفكّر فعلاً، تركت

أبـواب عقلي مشرّعـة لأفكار أخـرى ظننتها أفـكاري. لم أعد أصغي إلى نفـسي وأنـا أفكّر، كنت أصغـي إلى الآخرين الذيـن يخافون مني. عليـك أن تأخـذ حـذرك حـين تظـن نفسـك أنـك تفكّـر بحرّية كما تريـد، يجـب أن تحتـاط ولا تسـمح بتسرب فكـر الآخريـن المقنّـع خلسـة، فكـر والـدك ووالدتـك المجمّـل، فكر جـدّك المتنكـرّ، فكر أخيـك وأختـك المسـتتر، فكـر الأصدقـاء، وحتى فكـر الأعداء.

فـإذن، أنا لسـت ملعونـاً، ولسـت ملتهـم أرواح. أولئـك الذين يخشـون جانبـي هـم الذيـن يقولـون ذلـك. كما أننـي لسـت همجياً. رؤسـائي البيـض وأعدائـي أصحاب العيـون الزرق هم مـن يظنون ذلـك. أما مـا أفكر فيه أنا، الفكـر الذي يخصّني، فأظن أن سـخريتي وكلـماتي الجارحـة عـن طوطـم مادِمبـا هـي السـبب الحقيقـي لموته. لأننـي ثرثـار كبـير، خـرج مادِمبـا صارخاً فجـأة من باطـن الأرض كـي يثبـت لي مـا كنـت أعرفه مسـبقاً، أنه باسـل وشـجاع. السـؤال هنـا: أريـد أن أعـرف لمـاذا هزئـت من طوطم مـن هو أكثـر من أخ؟ لمـاذا بزغـت في ذهنـي في يوم الهجـوم كلـمات جارحة شـبيهة بفكّي جـرادة حديدية؟

مـع ذلـك، كنـت أحـب مادِمبـا الأكثـر مـن أخ. بحـقّ الله، كنـت أحبـه كثـيراً. كنـت أخـاف جـداً أن يمـوت، كـم كنـت أتمنـى أن نعـود نحـن الاثنين سـالمَين غانمَـين إلى غانديـول. كنت

مستعداً للقيام بأيّ شيء ليبقى على قيد الحياة. كنت ألحق به إلى كل مكان في حقل المعركة. بمجرد أن يطلق القائد أرمان نفير الهجوم محذّراً العدو المقابل بأننا سنخرج صارخين من باطن الأرض كي يستعدّ جيداً لرشّنا بالرصاص، كنت ألتصق به، حتى إذا جرحته رصاصة تجرحني أنا أيضاً، أو إذا قتلته رصاصة تقتلني معه، أو الرصاصة التي تخطئه تخطئني. بحقّ الله، خلال أيام الهجوم في حقل المعركة، كنا جنباً إلى جنب، الكتف إلى الكتف. كنا نركض صارخين نحو العدو المقابل في نسق واحد، نطلق رصاص بندقيتينا في الوقت نفسه، كنا مثل شقيقَين توأمين خرجا في اليوم نفسه أو الليلة نفسها من بطن أمهما.

لهذا بحقّ الله أنا لا أفهم. لا أفهم لماذا ألمحت إلى مادِمبا ديوب في ذلك اليوم بأنه غير شجاع، بأنه ليس محارباً حقيقياً. حين أفكر من تلقاء نفسي لا يعني ذلك بالضرورة أنني أفهم كل شيء. بحقّ الله أنا لا أفهم. لماذا ذات يوم معركة دامية، من دون سبب يعقل، أنا الذي كنت أخاف عليه من الموت وآمل أن نعود أنا وهو بعد الحرب حيَّين سالمَين إلى غانديول، قتلتُ مادِمبا ديوب بكلماتي. أنا لا أفهم كل شيء.

IX

عند اليد السابعة المقطوعة، ضاق ذرعهم بي. الجميع ضاق ذرعهم بي، الجنود التوباب كما الجنود الشوكولا، الرؤساء كما المرؤوسين. قال القائد أرمان إنني تعب بلا شك، ويجب أن أرتاح مهما كلّف الثمن. كي يبلغني الخبر استدعاني إلى ملجئه. جرى ذلك بحضور أحد قوم الشوكولا، رجل أكبر سناً مني بكثير وأعلى رتبة. رجل شوكولا يحمل وسام الصليب الحربي يبدو عليه الضيق، ترجم لي إلى لغة الولوف ما يريد القائد مني. عجوز شوكولا مسكين يحمل وسام صليب الحرب العالمية الأولى، كان يعتقد مثل الآخرين أنني ملعون، مفترس أرواح. كان يرتجف مثل ورقة صغيرة في مهب الريح من دون أن يجرؤ على النظر إليّ، ويده اليمنى تشدّ على تميمة مخبأة في جيبه.

مثل الآخرين، كان القنّاص إبراهيما سيك يخاف أن أفترس أحشاءه، أن أعجّل الموت إليه. مثل الآخرين، السود والبيض،

كان يرتجف خوفاً من أن تلتقي نظراتنا. عندما يأتي المساء، سوف يصلّي بصمت وقتاً طويلاً. عندما يأتي المساء، سوف يسبّح بسبحته وقتاً طويلاً اتّقاء لشرّي ورجسي. عندما يأتي المساء، سوف يتطهّر. بانتظار ذلك، كان الجدّ إبراهيما سيك مروّعاً لأنه كان مضطراً إلى ترجمة كلام القائد الموجه إليّ. بحقّ الله، كان مروّعاً لأنه هو الذي أخبرني أنني مُنحت إجازة بشكل استثنائي مدة شهر كامل في الصفوف الخلفية! ذلك لأن إبراهيما سيك كان يعرف أنني لن أرى في ما يأمرني به القائد خبراً مفرحاً. يعتقد جدّي الشوكولا صاحب وسام الصليب الحربيّ أنني لن أسرّ بالتأكيد حين أعلم أنهم يبعدونني عن خزانة مؤونتي، عن فرائسي، عن منطقة صيدي. يعتقد إبراهيما سيك أن ساحراً شريراً مثلي لن يتوانى في الغضب والهياج على من حمل إليه هذا الخبر المشؤوم. بحقّ الله، لا يمكن الإفلات إلا نادراً من جندي ساحر حُرم من المرعى شهراً كاملاً، حُرم من تلك الأرواح كلها، عدوّة كانت أو صديقة، يفترسها في ساحة المعركة. يعتقد إبراهيما سيك أنني أعتبره مسؤولاً من دون شك عن خسارة التهام أحشاء كل أولئك الجنود الأصدقاء أو الأعداء. لهذا، وكي يبعد عنه عين الشرّ ولا يكابد عواقب غضبي، كي يتمكن من أن يُري أحفاده ذات يوم وسام الصليب الحربيّ، كان الجدّ إبراهيما سيك يستهلّ

كل عبارة من عباراته المترجمة بالكلمات نفسها دائماً: «قال القائد إن... »

«قال القائد أرمان: عليك أن تأخذ استراحة. قال القائد أرمان: كنت في غاية البسالة، لكنك تعب، تعب جداً أيضاً. قال القائد أرمان إنه يحيّي شجاعتك، شجاعتك الكبيرة جداً جداً. قال القائد إنك ستنال وسام الصليب الحربي مثلي... آه! سبق ونلته؟... القائد يقول إنك ربما تنال واحداً آخر».

حينذاك عرفت، نعم وفهمت أن القائد أرمان لم يعد يريدني في ساحة المعركة. وراء الكلمات التي نقلها إليّ الجدّ الشوكولا صاحب وسام الصليب الحربي إبراهيما سيك، عرفت وفهمت أنهم اكتفوا بالأيادي السبع المقطوعة التي أحضرتها معي إلى خندقنا. نعم، لقد فهمت، بحقّ الله، أنهم لا يريدون في ساحة المعركة سوى الجنون العابر. مجانين من الغضب، مجانين من الألم، مجانين هائجون، لكن جنونهم موقت. يُمنع المجانين الدائمون. بمجرد انتهاء الهجوم، عليك أن تعيد الغضب والألم والعنف إلى أماكنها، الألم مغفور له، يمكنك إحضاره معك شرط أن تحتفظ به لنفسك. لكن الغضب والعنف، لا يمكن إحضارهما إلى الخندق. قبل العودة إلى هناك عليك أن تخلع عنك الغضب والعنف، عليك أن تتخلّى عنهما، وإلا تُحرم من

لعبة الحرب. الجنون بعد نفير القائد الذي يأمر بالتراجع أمر محرّم.

عرفت وفهمت أن القائد وإبراهيما سيك القنّاص الشوكولا صاحب وسام الصليب الحربيّ ما عادا يريدان غضباً في فرقتنا. بحقّ الله، لقد فهمت أنهم يرون في الأيادي السبع المقطوعة التي أحضرتها، كمن جلب معه الصرخات والبكاء إلى مكان هادئ. حين يشاهدون اليد المقطوعة، لم يعد بإمكان أحد أن يردع نفسه عن التفكير: «ماذا لو كانت يدي؟». لم يعد أحد قادراً على منع نفسه من التفكير: «لم أعد أحتمل هذه الحرب». بحقّ الله، بعد المعركة يصبحون إنسانيين تجاه العدوّ. لا يمكننا أن نفرح طويلاً بخوف العدوّ المقابل، إذ إننا نحن أيضاً خائفون. الأيادي المقطوعة هي بمنزلة الخوف العابر من الخارج إلى داخل الخندق.

«قال القائد أرمان إنه يشكرك مرة أخرى على بسالتك. قال القائد أرمان إن لديك شهراً إجازة. القائد أرمان يريد أن يعرف أين... أين خبّأتَ... أين... وَ وَ وَضعتَ الأيادي المقطوعة».

حينئذ، ومن دون تردّد، سمعت نفسي أجيب: «لم تعد معي».

X

بحـقّ الله، إن القائـد والجـدّ إبراهيـما سـيك يظنانـني أحمق. ربما أكـون غريـب الأطـوار بعض الـشيء لكنني لسـت أحمـق. لن أفشي لأحـد أبـداً مخبـأ الأيـادي المقطوعـة. إنهـا ملكـي، وأعـرف إلى أيّ عيـون زرق كانـت تنتمـي. أعـرف صاحـب كل واحدة منهـا. ترى فوقهـا شـعيرات شـقراً أو صهباً، ونـادراً سـوداً. بعضهـا كان بديناً، وبعضهـا هزيـلاً. تغـدو أظفارها سـوداً مـا إن أفصلها عـن أذرعها. إحـدى تلـك الأيـادي كانت أصغـر من الأخريـات، كأنها يـد امرأة أو طفـل كبير. شـيئاً فشـيئاً، تقسـو قبل أن تتفسـخ. لذلـك بعد اليد الثانيـة ولكـي أحفظهـا، تسـلّلت إلى مطبـخ خندقنـا وذررتُ عليها الكثـير الكثـير مـن الملح الخشـن، ثم وضعتهـا في الفـرن المطفأ تحت الرمـاد السـاخن. تركتهـا هنـاك ليلـة بكاملهـا. في الصبـاح الباكـر جـداً، ذهبـت لأسـتعيدها. وفي اليـوم التـالي، أعـدت وضعهـا في المـكان نفسـه بعـد أن ملّحتهـا جيداً مـرة أخـرى. وهكـذا دواليك،

إلى أن صارت كالأسماك المجففة. جفّفت أيادي أصحاب العيون الزرق، نوعاً ما مثلما يجفّف السمك الذي يُراد حفظه وقتاً طويلاً في موطني.

الآن، أياديّ السبع، -بالإضافة إلى الثامنة، ينقصني واحدة بسبب دعابات جان باتيست- أياديّ السبع فقدت خصائصها. صارت كلها متشابهة، مسفوعة ولامعة مثل جلد الجمال، لم تعد تعلوها شعيرات شقر أو صُهب أو سود. بحقّ الله، لقد تحوّلت إلى مومياءات، لم يعد عليها نمش أو شامات، جميعها لونها بنيّ أدكن. لم يعد هناك أي احتمال أن تتفسّخ جلودها الجافة. لا أحد تقريباً يستطيع أن يكشف رائحتها، باستثناء الجرذان. إنها في مكان آمن.

أظن أنه لم يعد لديّ سوى سبع أيادٍ لأن رفيقي جان باتيست المحب للمزاح سرق مني واحدة. سمحت له بأخذها لأنها كانت أول يد قطعتها وبدأت تتعفّن، لم أكن أعرف حينذاك ماذا أفعل بها. لم تكن قد خطرت على بالي فكرة تجفيفها مثلما تفعل زوجات الصيادين في غانديول بالسمك.

في غانديول، يجفّف السمك النهريّ أو البحريّ تحت الشمس أو بالدخان بعد أن يملّح إلى حدّ كبير. هنا لا يوجد شمس حقيقية. لا يوجد سوى شمس باردة لا تجفّف شيئاً. الطين يبقى طيناً. الدم لا يجفّ. لا تجفّ بزّاتنا العسكرية إلا على

النـار. لذلـك كنـا نشـعل نـاراً، لا لكي نتدفّـأ فقـط، إنما محاولـة منا لتجفيـف أنفسـنا.

لكـن النـيران التي نشـعلها داخـل الخنـدق صغيرة جـداً. يُمنع إشـعال النـيران الكبـيرة، لأن لا دخـان مـن دون نـار، كـما يقـول قائدنـا. لأن العـدوّ أمامنـا مـا إن يـرى انبعـاث دخـان مـن خندقنا، أقـلّ دخـان، حتـى دخـان السـجائر، بـما أن عيونهـم الـزرق ثاقبـة، حتـى يسـدّد مدافعـه نحونـا ويقصفنـا. العـدو أمامنا مثلنـا يقصف الخنـدق بـلا هـدف. ومثلنا أيضـاً يرسـل رشـقات لا عـلى التعيين، حتـى في أيـام الهدنة حـين لا يكون هنـاك هجوم. لهذا، علينـا الانتباه جيـداً كـي لا نقدّم لقنـاصيّ العـدو النقـاط العلّامة. علينـا بحقّ الله أن نتفـادى إظهـار مواقعنـا بدخـان النـار الأزرق! وهكـذا لا نـرى بزّاتنـا جافـة أبداً، ولا ملابسـنا الداخليـة، نبقى مبلّلين عـلى الدوام. لذلـك كنـا نحـاول أن نشـعل نيرانـاً صغـيرة لا دخـان لهـا، ونوجّه أنبـوب دخـان الفـرن في المطبخ نحـو الخلف. كنـا نحـاول بحقّ الله أن نكـون أكثـر مكـراً من الأعـداء أصحاب العيـون الـزرق الثاقبة. كان الفـرن إذن هـو المـكان الوحيـد الـذي أسـتطيع أن أجفّـف فيـه الأيـادي. بحـقّ الله، لقـد أنقذتهـا كلهـا، حتـى اليـد الثانيـة والثالثة اللتـان كانتـا قـد بدأتا تتفسـخان.

في البدايـة، كان رفاقـي في الخنـدق يبتهجـون حـين أجلـب لهم

أيـادي العـدوّ، حتى إنهم لمسـوها. مـن الأولى وحتى الثالثـة، تجرأوا عـلى لمسـها. بعضهـم بصـق عليهـا وهـو يضحك. فـور عـودتي إلى بطـن الأرض ومعي يـد العـدوّ الثانية، سـارع رفيقي جان باتيسـت إلى نبـش أغـراضي. سرقهـا مني وتركتـه يفعل ذلك، لأنهـا كانت قد بـدأت تتفسّـخ وتجـذب الجـرذان. لم أحـبّ أول واحدة قـط، لم تكن يـداً جميلـة. كان عـلى ظاهرهـا شـعيرات صُهـب طويلـة وكنـت قد بترتهـا عـلى نحـو سـيّئ، فصلتها عـن الذراع بشـكل خاطـئ لأنني لم أكـن معتـاداً حينـذاك. بحـقّ الله، لم تكن فـأسي مشـحوذة جيداً في ذلـك الوقت. ثم اكتسـبت الخـبرة وتوصلـت إلى فصل اليـد الرابعة عـن الـذراع بضربـة واحـدة، بضربـة واحـدة حـادّة قوية مـن نصل فـأسي الـذي كنـت أمضي السـاعات في شـحذه قبـل الهجـمات التي يعلنهـا القائـد بصفّارته.

وهكـذا راح رفيقـي جـان باتيسـت ينبـش أغـراضي ليسرق يد العـدوّ الأولى، اليـد التـي لم أكـن أحبهـا. كان جـان باتيسـت رفيقي الأبيـض الحقيقـيّ الوحيـد في الخنـدق. كان التوبـاب الوحيـد الذي جـاء لتعزيتـي بعـد مـوت مادِمبـا ديـوب. الآخـرون ربّتـوا كتفـي، والجنـود الشـوكولا تَلَـوا صلـوات الشـعائر قبـل أن يحملـوا جثـمان مادِمبـا إلى الخلـف. لم يعـاود الجنـود الشـوكولا الحديث عـن مادِمبا معـي قـط، فقـد كان بالنسـبة إليهـم ميتـاً بـين بقيـة الأمـوات. هـم

مثلي أيضاً فقدوا أصدقاء أكثر من إخوة. هم مثلي أيضاً كانوا يبكون على أمواتهم في دواخلهم. وحده جان باتيست قام بأكثر من تربيت كتفي عندما أحضرت جثمان مادِمبا ديوب مبقور البطن إلى الخندق. جان باتيست صاحب الرأس الكرويّ والعينين الزرقاوين داخل وجهه، اهتم بي. جان باتيست بقامته القصيرة ويديه الصغيرتين، ساعدني على غسل ملابسي الداخلية، جان باتيست أعطاني السجائر، شاركني في رغيفه، شاركني في الضحك. لهذا، عندما نبّش أغراضي ليسرق يد العدوّ الأولى، تركته يفعل.

كان يطيب لجان باتيست اللعب بتلك اليد المقطوعة. تسلّى كثيراً باستخدامها وقد بدأت تتفسّخ، منذ الصباح الأول بعد أن سرقها منّي. حين كنا نستيقظ جميعنا بمزاج عكر، كان يصافحنا وقت الإفطار الواحد تلو الآخر. وبعد أن يسلّم على الجميع، كنا نعرف أنه مدّ إلينا يد العدوّ المقطوعة وليس يده التي خبّأها في كم بزّته العسكرية.

لكن ألبير كشف حيلته وصاح مذعوراً عندما أدرك أن جان باتيست وضع يد العدوّ في يده. صاح وهو يرمي يد العدوّ أرضاً، فضحك الجميع وسخروا منه، حتى التلاميذ الضباط، حتى القائد بحقّ الله. حينذاك صاح بنا جان باتيست: «يا زمرة

المغفّلين، جميعكم صافحتم يد العدوّ، عليكم جميعاً أن تخضعوا لمحكمة عسكرية!» حينذاك ضحك الجميع مجدداً، حتى العجوز الأسود صاحب الوسام الحربيّ إبراهيما سيك الذي كان يترجم لنا ما قال جان باتيست.

XI

ولكـن بحـقّ الله، تلـك اليـد الأولى المقطوعـة لم تجلب السـعد لجـان باتيسـت. لم يبـقَ جـان باتيسـت صديقـاً لي وقتاً طويـلاً، ليس لأننـا توقفنـا عـن المزاح، بـل لأن جان باتيسـت قد مـات. لقد مات ميتة شـنيعة، شـنيعة جـداً. مات مع يـد العدوّ المقطوعـة وهي معلّقة بخوذته. كان جان باتيسـت يحـب الضحك كثيراً، ويحـب أن يتصنّع البلاهـة. هنـاك حـدود، ليس مـن المستحسـن اللعب بأيـادي العدوّ تحـت أنظـار عيـون الأعداء الـزرق. ما كان يجـدر بجان باتيسـت أن يستفزهم، مـا كان يجـدر به الاسـتخفاف بهـم. لدى الأعـداء أمامنا مشـاعر أيضـاً. لم يسرّهـم أن يشـاهدوا يـد رفيقهـم وقد غرسـت في رأس حربـة بندقيـة. ضاقـوا ذرعاً برؤيتهـا تتحرك في سـماء خندقنا. طفـح بهـم الكيل مـن حماقات جـان باتيسـت الـذي كان يصيح بهم بصـوت يصـمّ الآذان: «ألمـان قـذرون، ألمـان قـذرون!» وكأن جـان باتيسـت قـد غدا مجنونـاً، وأنـا عرفت وفهمت السـبب.

أصبح جان باتيست مستفزاً. منذ أن تلقّى الرسالة العطرة صار يحاول لفت انتباه عيون العدوّ الزرق الرابضة وراء مناظيرهم. عرفت وأدركت مذ رأيت وجهه وهو يقرأ تلك الرسالة. كان وجهه مشرقاً بالضحك والنور قبل أن يفتح تلك الرسالة العطرة. عندما انتهى من قراءتها، أصبح وجه جان باتيست رمادياً. اختفى النور. بقيت ابتسامته وحدها، لكن ضحكته لم تعد ضحكة سرور، صارت ضحكة مريرة. ضحكة كالبكاء، ضحكة سمجة ومزيّفة. منذ تسلمه الرسالة العطرة، صار جان باتيست يستخدم يد العدوّ الأولى ليقوم بها بإشارات بذيئة تجاه الأعداء أمامنا. كان ينعتهم بـ«المنايك» وهو يلوّح في سماء خندقنا بيد العدوّ المغروسة في رأس حربته وقد رفع إصبعها الوسطى. وكان يصيح: «ألمان منايك»، وهو يحرّك بندقيته رافعاً ذراعه كي تتلقّى العيون الزرق أمامه رسالته وتكشف إصبع الإهانة من دون أي خطأ.

طلب منه القائد أرمان أن يثني تلك الإصبع، إذ لم تكن حركة جان باتيست لمصلحة أحد. كان كمن يشعل النار في الخندق. كان لإساءته قوة الدخان، قوة تساعد العدو أمامنا على تسديد طلقته، كمن يدلّ الأعداء إليه. لا حاجة لأن يأمره القائد كي يموت. بحقّ الله، لقد عرفت وأدركت، مثلما عرف وفهم

القائد والآخرون أن جان باتيست يبحث عن الموت، يحاول أن يثير حنق عينيّ العدوّ الزرقاوين كي يستهدفه.

وهكذا في صباح أحد الأيام بعد أن أطلق قائدنا صفّارة الهجوم وخرجنا من بطن الأرض صارخين، لم يطلق الأعداء أصحاب العيون الزرق الرصاص فوراً. انتظروا مهلة عشرين نفساً قبل رشّ الرصاص علينا، الوقت اللازم لكشف جان باتيست. بحقّ الله، ليس أقل من عشرين نفساً. عرفت وأدركت، أدركنا جميعاً لماذا انتظروا قبل إطلاق الرصاص علينا. كان الأعداء زرق العيون يضمرون الشرّ لجان باتيست، كما قال القائد. بحقّ الله، لقد ضاقوا ذرعاً بسماعه يصيح بهم: «ألمان منايك!» ويد صديقهم مغروسة في رأس حربة تترجح في سماء خندقنا. كان الأعداء أمامنا قد خططوا لقتل جان باتيست أثناء هجوم الفرنسيين التالي. لقد قالوا فيما بينهم: «سوف نقتل هذا الصبيّ بطريقة قذرة كي يكون عبرة للآخرين».

وهذا الأحمق جان باتيست الذي كان يوحي بأنه يريد الموت مهما كلّف الثمن، فعل كل ما بوسعه كي ييسّر عليهم المهمة. علّق يد العدوّ في مقدمة خوذته. وبما أنها كانت إلى الأمام قليلاً فقد قمّطها بقماش أبيض، لفّها كالعمامة إصبعاً بعد إصبع، كما قال القائد. وقد فعل ذلك على أفضل وجه، إذ كنا نرى بوضوح

تلك اليد المعلّقة في مقدمة خوذته، إصبع الإهانة مرفوعة إلى فوق والأصابع الأخرى مثنية. لم يصعب على عيون العدوّ الزرق كشفه. كان معهم منظار، ورأوا به بقعة بيضاء في أعلى خوذة الجندي قصير القامة. لا شك أن الأمر استغرق معهم خمسة أنفاس. ضبطوا منظارهم ورأوا تلك البقعة البيضاء تشير إليهم بإصبع البذاءة. خمسة أنفاس أخرى لاهثة. ولكن لضبط رميتهم بدقة أكثر، لا شك أنهم استغرقوا وقتاً أطول، أقله عشرة أنفاس بطيئة فلقد كانوا حاقدين جداً على جان باتيست بعد أن استخفّ بيد رفيقهم. كانوا قد أعدّوا له سلاحاً ثقيلاً، وما إن رأوه عبر منظار مدفعيتهم بعد عشرين نفساً من بداية صفارة القائد حتى انفرجت أساريرهم، أولئك الأعداء أمامنا. لا شك أن ابتهاجهم تعاظم أكثر عندما شاهدوا عبر منظارهم رأس جان باتيست يتطاير. سُحق رأسه وخوذته واليد المعلّقة عليها. لا شك أن رؤية عارهم يُسحق فوق رأس المذنب قد أثلجت صدور الأعداء زرق العيون التوأمية. بحقّ الله، لا شك أنهم قدّموا السجائر لذاك الجندي الذي نجح في تسديد هذه الطلقة الموفقة. لا شك أنهم ربّتوا كتفه في نهاية الهجوم وقدّموا له الشراب. لا شك أنهم صفّقوا له على الضربة الماهرة. وربما ابتكروا أغنية لتكريمه.

بحقّ الله، لعلّها كانت تلك هي الأغنية التي سمعتها تنبعث

من خندقهم في مساء الهجوم الذي مات فيه جان باتيست، في مساء ذاك اليوم الذي قطعت فيه يد العدوّ الرابعة، بعد أن وضعت أحشاءه خارج جسده وسط الأرض المحايدة، كما يسمّيها القائد.

XII

سـمعت جيـداً غناء الأعداء أصحـاب العيون الـزرق التوأمية، لأننـي اقتربـت كثيراً مـن خندقهم في ذاك المسـاء. بحـقّ الله، زحفت قريبـاً جـداً منهم مـن دون أن يـروني، وانتظرت أن ينتهـوا من الغناء كـي أصطـاد واحـداً منهم. انتظـرت أن يسـود الصمـت، أن يناموا، والتقطـت واحـداً منهـم كـما يُخـرج الوليد من بطـن أمه بقـوة ناعمة كـي أخفّف الصدمـة، كي أكبـت الضوضاء. سرقت واحـداً هكذا، مبـاشرة مـن خندقهـم، للمـرة الأولى والأخـيرة. سرقـت واحـداً منهـم لأننـي كنـت آمـل القبـض عـلى القنّـاص الماهـر الـذي أطلق النـار عـلى جـان باتيسـت. بحـقّ الله، في ذاك المسـاء خاطـرت أيّـما مخاطـرة في سـبيل الانتقـام لرفيقـي جان باتيسـت الـذي كان يرغب في المـوت بسـبب رسـالة عطرة.

زحفت سـاعات تحت الأسـلاك الشـائكة حتى أصبحـت قريباً مـن خندقهـم. غطّيـت نفسي بالوحـل حتى لا يـروني. بعـد القذيفة

التي أطاحت رأس جان باتيست، ألقيت بنفسي على الأرض ورحت أزحف ساعات في الوحل. كان القائد أرمان قد أطلق صفّارة نهاية الهجوم منذ وقت طويل عندما أصبحت بالقرب من خندق العدوّ المفتوح هو أيضاً مثل فرج امرأة عملاقة، امرأة بحجم الأرض. عندئذ دنوت أكثر فأكثر من حافة أرض العدوّ وانتظرت، انتظرت طويلاً وهم يغنّون أغاني الرجال، أغاني المحاربين تحت النجوم. انتظرت وانتظرت إلى أن ناموا. باستثناء واحد، واحد جاء إلى جدار الخندق يستند إليه كي يدخّن. يجب ألا تدخّن في الحرب لأنك تكشف مكانك. كشفت مكانه بسبب دخان تبغه، بفضل الدخان الأزرق المتصاعد إلى السماء من خند قه .

بحقّ الله، لقد خاطرت مخاطرة كبرى. ما إن لمحت، على مبعدة خطوات من يساري، الدخان الأزرق المتصاعد نحو السماء، حتى رحت أزحف كالأفعى على طول الخندق. كان الوحل يغطيني من رأسي إلى أخمص قدميّ. أصبحت كأفعى المامبا التي تتّخذ لون الأرض التي تزحف عليها. كنت غير مرئيّ، زحفت وزحفت وزحفت بأسرع ما استطعت كي أصل أقرب ما يمكن إلى الدخان الأزرق الذي كان ينفثه جندي العدوّ في الهواء الأسود. في تلك الليلة، قمت بمخاطرة كبرى حقاً في

سبيل صديقي الأبيض الذي أراد أن يموت في الحرب، ولم أفعل ذلك إلا مرة واحدة.

من دون أن أعرف ماذا يحدث في خندق العدوّ، من دون أن أرى أي شيء كان، ألقيت برأسي وذراعيّ على غير هدى إلى الداخل كالأعمى. أنزلت بسرعة أعلى جسدي كي ألتقط العدوّ صاحب العينين الزرقاوين الذي كان يدخّن في الأسفل. بحقّ الله، لقد كنت محظوظاً، إذ لم يكن هناك أي تغطية في ذلك الموضع من الخندق. كنت محظوظاً، فلقد كان جندي العدوّ الذي ينفث دخانه الأزرق في السماء السوداء من خندقه وحيداً. كنت محظوظاً لأنني تمكنت من كمّ فمه قبل أن يتمكن من الصراخ. بحقّ الله، لقد كنت محظوظاً لأن صاحب غنيمتي الرابعة كان قصير القامة وخفيفاً مثل صبيّ في الخامسة عشرة أو في السادسة عشرة من العمر. في مجموعة أياديّ هو من قدّم لي أصغرها. كنت محظوظاً في تلك الليلة لأن رفاق وأصدقاء الجندي الصغير صاحب العينين الزرقاوين لم يكشفوا مكاني. لا شك أنهم كانوا جميعاً نياماً، منهكين من هجوم النهار الذي قتل فيه جان باتيست أول واحد برصاص قنّاصهم الماهر. بعد سقوط رأس جان باتيست، راحوا يطلقون الرصاص بجنون من دون توقف كي يتنفسوا. مات الكثير من رفاقنا في ذلك

النهـار. ولكننـي أفلحـت في أن أركـض وأطلق الرصـاص وأرتمي عـلى الأرض وأزحف تحت الأسـلاك الشـائكة. أطلقت الرصاص وأنـا أركـض، ارتميت عـلى بطنـي وزحفـت في الأرض المحايدة كما يسـمّيها القائد.

بحـقّ الله، لقـد كان جنـود الأعـداء أمامنـا متعبـين إلى حـد الإنهـاك. في تلـك الليلـة، خفّفـوا مـن الحـرس بعـد أن غنّـوا. لا أعـرف لمـاذا لم يكـن الجنـدي الصغـير متعبـاً في تلـك الليلـة. لمـاذا ذهـب ليدخّـن سـيجارته في حـين ذهـب رفاقـه في السـلاح كلهـم إلى النـوم؟ بحـقّ الله، القـدر هـو الـذي جعلنـي أمسـكه هـو وليـس غـيره. مكتـوب في السـماء أنـه مـن سـأذهب وأبحث عنـه في قلـب الليـل في جـوف خنـدق العـدوّ الدافـئ. الآن أنـا أعـرف وأدركـت أن لا شيء عاديّـاً في كتابـات السـماوات. أعـرف وأدركـت، لكننـي لـن أقول هـذا لأحـد، لأننـي أفكر في مـا أريـد، أفكـر لنفسي فحسـب منـذ مـوت مادِمبا ديـوب. أظن أننـي فهمـت أن مـا كُتب في السـماء ليس سـوى نسـخة مما يكتبه الإنسـان هنـا في هـذه الدنيا. بحـقّ الله، أظـن أن الله يتأخـر علينا دائـماً، لـه القـدرة عـلى أن يعايـن الأضرار فحسـب. لا يمكن أن يكـون راغبـاً في أن أمسـك الجنـدي الصغـير صاحـب العينـين الزرقاويـن في جـوف خنـدق العـدو الدافـئ.

صاحب اليد الرابعة في مجموعتي لم يرتكب السوء على ما أعتقد. قرأت ذلك في عينيه الزرقاوين عندما نزعت أحشاءه في الأرض المحايدة، كما يسمّيها القائد. رأيت في عينيه الصبيّ الطيب، الابن الصالح، كما أنه كان لا يزال يافعاً جداً كي يعرف امرأة، لكنه سيكون زوجاً صالحاً في المستقبل بالتأكيد. وهأناذا أقع عليه مثلما تقع المصيبة والموت على البراءة. هذه هي الحرب: حين يتأخر الرب عن إيقاع البشر، حين لا يصل ليحلّ عقدة خيوط الأقدار المتكاثرة في الوقت نفسه. بحقّ الله، لا يمكن أن نحقد على الله. من قال إنه لم يكن راغباً في معاقبة والدَيّ جندي العدوّ الصغير بجعله يموت بيديّ السوداوين في الحرب؟ من قال إنه لم يكن راغباً في معاقبة جدّيه لأنه لم يجد الوقت لتقويم أخطائهما في أبنائهما؟ من يدري؟ بحقّ الله، لعلّ الله تأخر في معاقبة عائلة جندي العدوّ الصغير. أنا في المكان الصحيح إذن كي أعرف أنه عاقبهم بشدّة من خلال حفيدهم أو من خلال ابنهم. ذلك لأن جندي العدوّ الصغير تألم كثيراً مثل الآخرين حين أخرجت أحشاءه كلها ووضعتها خارجاً، كومة صغيرة بجانبه في الهواء الطلق وهو ما يزال حيّاً. لكنني سرعان ما أشفقت عليه، أشفقت عليه كثيراً. خفّفت عنه عقوبة والديه أو جدّيه. لم أتركه يتوسّل إليّ سوى مرة واحدة قبل أن أجهز عليه

وعيناه غارقتان في الدموع. لا يمكن أن يكون هو من بقر بطن صديقي، الأكثر من شقيق، مادِمبا ديوب. لا يمكن أن يكون هو من أطلق طلقة صغيرة من مدفعية على رأس صديقي جان باتيست الساخر اليائس من رسالة عطرة.

لعلّ جندي العدوّ الصغير ذا العينين الزرقاوين كان في نوبة حراسة حين ألقيت رأسي أولاً إلى داخل الخندق الدافئ، ومددت ذراعيّ وأمسكته من دون أن أعرف من أمسك. سلبته بندقيته المعلّقة في كتفه. لا يجدر بجندي الحراسة أن يدخّن. الدخان الأزرق الصغير في قلب الليل الأسود فاضح. هكذا كشفت الجنديّ الصغير ذا العينين الزرقاوين صاحب غنيمتي الرابعة، يدي الرابعة. ولكن بحقّ الله، لقد أشفقت عليه في الأرض المحايدة، وقتلته من أول رجاء في عينيه الزرقاوين الغارقتين في الدموع. لقد شمله الله برعايته.

عند عودتي إلى خندقنا مع البندقية واليد الرابعة الصغيرة التي نظّفتْها وشحّمتْها ولقّمتْها وأفرغتْها، صار رفاق السلاح البيض والسود يتحاشون عني كأنني الموت. عند عودتي إلى خندقنا زاحفاً في الوحل مثل أفعى المامبا السوداء التي تعود إلى جحرها بعد صيد الجرذان، لم يجرؤ أحد على لمسي. لم يسرّ أحد برؤيتي. لعلّهم ظنّوا أن اليد الأولى جلبت النحس لذلك

المجنـون الصغـير جـان باتيسـت، وأن سـوء الطالـع سـيقع على كل مـن يلمسـني، أو حتـى عـلى كل مـن ينظر إليّ. ثـم إن جان باتيسـت لم يعـد هنـا مـن الآن فصاعـداً كـي يجعـل الآخريـن يـرون الجانـب المشرق للفـرح لدى رؤيتـي مجـدداً أعود حيـاً. لـكل شيء وجهان: وجـه حسـن ووجـه قبيـح. حـين كان جـان باتيسـت لا يـزال حيّاً، كان يُظهـر للآخريـن الوجـه السـعيد لغنائمـي. «انظـروا! هـا هـو صديقنـا ألفـا ومعـه يـد جديـدة والبندقيـة التـي كانـت تحملهـا. لنفـرح أيهـا الشـباب، أرى أن رصـاص الألمـان سـوف يقـلّ علينا! أيـادِ ألمانيـة أقـلّ، رصـاص ألمـانيّ أقـلّ. المجـد لألفـا!». حينـذاك كان الجنـود السـود والبيـض، التوباب والشـوكولا، يأتـون لتهنئتي لأننـي أحـضرت غنائمـي إلى خندقنـا المفتـوح عـلى السـماء. الجميع هلّلـوا لي حتـى اليـد الثالثـة. كنت شـجاعاً، كنـت قـوة الطبيعة، كما قـال القائـد مـرات عديـدة. بحـقّ الله، كانـوا يعطونني حصـة وفيرة لآكلهـا، كانـوا يسـاعدونني عـلى الاسـتحمام، وخصوصـاً جـان باتيسـت الـذي كان يحبنـي كثـيراً. ولكن في مسـاء ذلك اليـوم الذي مـات فيـه، ومنـذ عـودتي إلى خندقنـا مثـل أفعـى مامبـا المتسـلّلة إلى جحرهـا تحـت الأرض بعد الصيـد، هربوا منّـي كأنني المـوت. حلّ الوجـه القبيـح لجرائمي محـل الوجه الجميـل. بدأ الجنود الشـوكولا يتهامسـون فيـما بينهـم ويقولـون: إننـي جنـدي سـاحر، **ملعـون**،

مفترس أرواح، وبدأ الجنود التوباب يصدّقونهم. بحقّ الله، كل شيء يحمل نقيضه. إلى حين اليد الثالثة كنت بطل حرب، ومنذ الرابعة، أصبحت مجنوناً خطراً، وحشاً دمويّاً. بحقّ الله، هكذا تسير الأمور، هكذا يسير العالم: لكل شيء وجهان.

XIII

لقد ظنّوا أنني أبله، لكنني لست أبله. الكابتن والجدّ القنّاص الشوكولا صاحب وسام الصليب الحربي إبراهيما سيك طلبا مني الأيادي السبع التي أحضرتها كي يوقعاني في الفخ. بحقّ الله، هما يريدان أدلّة على وحشيتي كي يضعاني في الحجز، لكنني لن أقول لهما أبداً أين خبّأت أياديّ السبع، ولن يعثروا عليها. لا يمكنهما أن يتخيّلا في أي مكان مظلم ترقد الأيادي جافّة ومغلّفة بالقماش. بحقّ الله، من دون تلك الأدلّة السبعة، لن يكون أمامهم خيار سوى إرسالي موقتاً إلى الصفوف الخلفية كي أرتاح. بحقّ الله، كي يتخلّصوا مني من دون ضجة، لا خيار أمامهم سوى الأمل في أن يرديني الجنود أصحاب العيون الزرق المتماثلة قتيلاً لدى عودتي من الاستراحة. في الحرب، حين يكون هناك مشاكل مع أحد جنودك، تدفعه إلى أن يقتله الأعداء. الأمر في غاية السهولة وعملي.

ما بين اليد الخامسة والسادسة، رفض بعض الجنود البيض الخضوع للقائد أرمان حين كان يطلق صفير الهجوم. في أحد الأيام، قالوا له: «لا، طفح الكيل!» لا بل قالوا أيضاً: «عبثاً تحاول الصفير لتنبيه العدو أمامنا كي يرشّنا بالرصاص لدى خروجنا من الخندق، لن نخرج بعد الآن. نحن نرفض الموت بواسطة صفّارتك!» حينذاك ردّ عليهم القائد: «هكذا إذن، ما عدتم تريدون الامتثال للأوامر؟» وعلى الفور ردّ الجنود التوباب: «كلا، لم نعد نريد الامتثال لصفّارة الموت خاصتك!» حين أيقن القائد بعدم رغبتهم في الانصياع لأوامره، وحين رأى أيضاً أن عددهم لا يتجاوز السبعة جنود وليس خمسين كما في البداية، استدعى المخالفين السبعة إلى وسطنا وأمرنا: «أوثِقوا أياديهم إلى ظهورهم!» ما إن أُوثقتْ أياديهم إلى ظهورهم حتى صاح القائد في وجوههم: «أنتم جبناء، أنتم عار فرنسا! تخافون الموت في سبيل وطنكم، مع ذلك، ستموتون اليوم!»

ما جعلنا القائد نفعله حينذاك فظيع جداً، مريع. بحقّ الله، لم نتخيّل قط أننا سنعامل رفاقنا في السلاح كأنهم العدوّ أمامنا. أمرنا بتسديد بنادقنا إليهم، وقتلهم في حال رفضوا الامتثال لآخر أوامره. كنا في أحد الجوانب، هناك حيث كان الخندق مفتوحاً على سماء الحرب، والرفاق الخونة في الجانب الآخر، على مسافة

بضع خطوات منّا. كان الرفاق الخونة يديرون لنا ظهورهم، يقفون في مواجهة سلالم صغيرة. سبعة سلالم صغيرة، تلك التي نتسلّقها عادة للخروج من الخندق ونركض للهجوم على العدوّ قبالتنا. حين وقف الجميع في أماكنهم، صاح بهم القائد: «لقد خنتم فرنسا! ولكن أولئك الذين سيطيعون أمري الأخير سينالون الوسام الحربي بعد موتهم. أما الآخرون، فسوف نكتب إلى ذويهم أنهم فرّوا من الجندية، خونة اشتراهم العدوّ. لن يكون لهم معاش حربيّ، لا شيء لزوجاتهم، لا شيء لعائلاتهم!» ثم أطلق القائد صفّارة الهجوم كي يخرج رفاقنا من الخندق ويرديهم العدو المقابل.

بحقّ الله، لم أشهد في حياتي قط شيئاً بمثل تلك الفظاعة. حتى قبل أن يطلق قائدنا صفّارة الهجوم، بدأت أسنان بعض رفاقنا الخونة تصطك، وآخرون تبوّلوا تحتهم. ما إن أطلق القائد صفّارته، حتى صار الأمر مريعاً. لو لم تكن اللحظة في غاية الجدّية، ربما كنا سنضحك. فلقد كانت أيادي رفاقنا الخونة موثقة إلى ظهورهم ويصعب عليهم تسلّق الدرجات الستّ أو السبع لسلالم الهجوم. راحوا يتعثرون، ينزلقون، يسقطون على ركبهم وهم يصيحون من الخوف، ذلك لأن الأعداء أصحاب العيون الزرق المتماثلة لم يتأخروا حتى أدركوا أن القائد كان يقدّم

لهـم طريـدة. بحـقّ الله، بمجـرد أن رأى القنّـاص الماهـر الـذي قتل جـان باتيسـت الهدايا التـي قُدّمت إليه، أرسـل ثـلاث قذائف خبيثة أخفقـت هدفهـا الأول. لكـن الرابعة انفجـرت في رفيـق خائن كان قـد خـرج تـوّاً مـن الخنـدق، رفيـق خائـن شـجاع في سـبيل زوجته وأولاده، بـرزت أحشـاؤه كلها ورشّـتنا بالدم الأسـود. بحقّ الله، أنا كنـت معتاداً مـن قبل، لكـن رفاقي الجنود السـود والبيـض ما كانوا معتاديـن. بكينا كثـيراً كلنا، خصوصاً عـلى رفاقنا الخونـة المحكومين بالخـروج مـن الخندق كـي يُذبحوا كل بـدوره، وإلا لن ينالوا وسـام الحـرب بعـد الوفـاة، كـما قـال القائـد. أي لـن يكـون هنـاك معاش لذويهـم، لا معـاش لزوجاتهـم ولا لأولادهم.

بحـقّ الله، زعيـم الرفـاق الخونـة كان شـجاعاً. زعيـم الرفـاق الخونـة اسـمه ألفونس. بحـقّ الله، كان زعيـم الخونة محاربـاً حقيقياً، والمحـارب الحقيقـيّ لا يهـاب المـوت. خـرج ألفونـس مـن خندقنـا متعثـراً مثـل المشـلول وهـو يصيـح: «الآن أعـرف لمـاذا يجـب أن أمـوت! أعـرف لمـاذا. أموت في سـبيل معاشـك يـا أوديـت! أحبك يـا أوديـت! أحبـك يـا أود...» وبعدها أطاحـت رأسـه طلقـة خبيثة خامسـة هـو أيضـاً مثـل جـان باتيسـت، لأن القنّـاص الماهـر أمامنا كان قـد بـدأ العثور عـلى أهدافه. مطر مـن النخاع ينهـال علينا وعلى الرفـاق الخونـة الآخريـن الذيـن كانـوا يصرخـون من الرعـب لأنه

كان عليهم أن يموتوا كما مات زعيم الخونة ألفونس. بحقّ الله، جميعنا بكينا موت زعيم الرفاق الخونة. الجدّ القنّاص الشوكولا صاحب الوسام الحربي إبراهيما سيك هو الذي ترجم لنا ما كان يصرخ به ألفونس. أوديت محظوظة جداً برجلها هذا. ألفونس شخصية هامّة.

ولكن بعد ألفونس بقي خمسة جنود. بقي خمسة عليهم الموت بعد زعيم الخونة. التفت أحدهم ناحيتنا باكياً وهو يصرخ: «الرحمة!... الرحمة! أيها الرفاق... أيها الرفاق... الرحمة...» هذا الرفيق الخائن هو ألبير الذي لم يكن يبالي بالوسام الحربي، أو بمعاش ما بعد الوفاة الذي تحدث عنه القائد. لم يكن يفكر هذا الجندي بفي والديه، ولا في زوجته، ولا في أولاده. ربما لم يكن لديه أحد. صاح القائد: «نارا» وأطلقنا الرصاص. بقي منهم أربعة. أربعة رفاق خونة باقون على قيد الحياة موقتاً. أولئك الرفاق الخونة الأربعة كانوا شجعاناً في سبيل عائلاتهم. أولئك الرفاق الخونة الأربعة خرجوا من الخندق الواحد تلو الآخر وهم يترنحون كالدجاج الذي يعدو قليلاً بعد أن تقطع رؤوسه. لكن القنّاصّ الماهر للعدو أمامنا كان لديه متّسع من الوقت ومتّسع من الهواء لثلاثين نفساً، وكان قد سئم من تبديد طلقاته الصغيرة. بدا كأنه ينتظر، زمناً يعادل ثلاثين نفساً، وراقب من

منظـاره الذبائـح التـي كانت تُرسـل إليـه. كان لا يـزال لديـه اثنتان بعـد ثـلاث طلقـات خائبة. خمـس طلقات صغـيرة، سـتكون وافية. في الحـرب، يجـب ألا نبـدّد الذخـيرة الثقيلـة في سـبيل عينـيّ العدوّ، كـما يقـول القائـد. وهكذا قُتـل آخـر أربعة رفـاق خونة برشّاشـات حقـيرة، معـاً، وصرخاتهـم الأخـيرة لا تـزال حبيسـة في صدورهم.

بحـقّ الله، بعـد مـوت الرفـاق الخونـة السـبعة بأمر مـن القائد، توقـف التمـرّد، توقـف العصيـان. بحـقّ الله، عرفـت وأدركـت أن القائـد لـو أراد أن يقتلنـي العـدوّ أمامنـا فـور عـودتي مـن مأذونيتي في الخلـف، لنجـح في ذلك. أعـرف وأدرك أنه لو أراد موتي فسـوف يناله.

ولكـن يجـدر بي ألا أجعـل القائـد يعـرف أننـي أعـرف. بحـقّ الله، يجـب ألا أفصـح عـن مـكان الأيـادي المقطوعة. لذلـك أجبت القائـد الـذي سـألني عـلى لسـان الجـدّ الشـوكولا صاحب الوسـام الحـربيّ إبراهيما سـيك: أيـن أصبحت أيـادي العدوّ المقطوعـة، أنني لا أعـرف، وأننـي أضعتهـا، وأن واحـداً مـن الرفـاق الخونـة ربـما سرقهـا لكـي يحمّلنـا جميعـاً وزرهـا ظلـماً وبهتانـاً. «حسـناً، حسـناً، أجابنـي القائـد، لتبـقَ حيثما هـي. لتبقَ بعيـدة عن الأنظـار. لا بأس، لا بـأس... ولكن لا شـك أنـك متعب. طريقتـك في خوض الحرب همجيـة بعـض الـشيء. لم أعطـك الأمر قـط بقطـع أيـادي الأعداء!

هذا ليس نظامياً. لكنني سوف أغضّ النظر عن ذلك لأنك قُلّدت وساماً حربيّاً. لا شك أنك فهمت تماماً ما معنى ذلك، أن تذهب إلى الجحيم في سبيل شخص شوكولا. سوف تذهب للاستراحة مدة شهر في الصفوف الخلفية، ثم تعود إلينا مجدداً مستعداً للقتال. يجب أن تعدني أنك ستتوقف عن بتر أعضاء الأعداء لدى عودتك، مفهوم؟ عليك أن تكتفي بقتلهم، وليس بتقطيعهم. الحرب المتحضّرة تمنع ذلك. مفهوم؟ غداً سترحل».

ما كنت لأفهم شيئاً مما يقوله القائد لو لم يترجم لي إبراهيما سيك أحد أسلافي السود الحائز الوسام الحربي مستهلاً عباراته كلها بـ: «قال القائد أرمان إن...» غير أنني أحصيت عشرين نَفَساً أثناء كلام القائد، واثني عشر نفساً فقط أثناء ترجمة إبراهيما سيك. هناك إذن شيء في كلام القائد لم يترجمه لي الشوكولا صاحب الوسام.

القائد أرمان رجل قصير القامة، يغمر عينيه السوداوين غضب لا يهدأ. عيناه التوأمان السوداوان مملوءتان بالغضب تجاه كل ما لا يمتّ إلى الحرب بصلة. بالنسبة إليه، الحياة هي الحرب. القائد يعشق الحرب كما نعشق امرأة مشاكسة. هو يقضي نزواته كلها في الحرب، يغدق عليها بالهدايا من دون حسبان لحيوات الجنود. القائد مفترس أرواح. أعرف وفهمت أن القائد أرمان

ملعون يحتاج إلى امرأته كي يبقى على قيد الحياة، وكذلك هي تحتاج إلى رجل مثله كي يعيلها.

أعرف وأدرك أن القائد أرمان يفعل ما بوسعه كي يستمر في نكاح الحرب. أدركت أنه يعتبرني غريباً خطيراً قد يفسد عليه خلوته مع الحرب. بحقّ الله، القائد حاقد عليّ. عرفت وأدركت أنني بعد عودتي هناك مخاطرة في أن أُعيّن في مكان آخر. بحقّ الله، يجدر بي استعادة الأيادي من حيث خبأتها. لكنني عرفت وأدركت أيضاً أن هذا ما يتمناه القائد. سوف يراقبني، ربما يكلّف جدّي الشوكولا صاحب الوسام الحربيّ إبراهيما سيك ذلك. بحقّ الله، كان يريد أياديّ السبع كي يستخدمها دليلاً ويجعلهم يطلقون الرصاص عليّ، كي يؤمّن على نفسه، كي يستمر في نكاح الحرب. سوف يرسل من يفتش متاعي قبل أن أرحل. كما كان يقول جان باتيست: يريد أن يضبطني متلبّساً. لكنني لست أحمق. بحقّ الله، لقد عرفت وفهمت كي لا أقع في مصيدته.

XIV

أشـعر بالراحـة والفـرج حيـث أنـا. هنـا في الخلـف لا أفعـل شـيئاً تقريبـاً بنفـسي. أنـام، آكل، تعتني بي شـابات جميـلات يرتدين الأبيـض، وهذا كل شيء. هنا لا نسـمع أصـوات تحطم الانفجارات والرشاشـات والقذائـف الصغـيرة التي يرسـلها العـدوّ أمامنا.

هنـا في الخلـف حيـث أنـا، لم آتِ بمفـردي، أتيت برفقـة أيادي العـدوّ السـبع. لقـد هرّبتهـا تحـت أنـف ولحيـة القائـد سـاخراً منه. «تحـت أنـف ولحيـة القائـد» كـما كان يقـول جـان باتيسـت. بحـقّ الله، بالـكاد خبّأتهـا في قعـر حقيبـة الجنديّـة. صحيـح أنـني قمّطـت كل واحـدة منهـا بشرائـط من القـماش الأبيـض نفسـه ولففتها بكل عنايـة، لكنـني كنـت أعـرف كل واحـدة منها عـلى حـدة. رفاقي في السـلاح، الجنـود البيـض أو السـود الذيـن تلقـوا الأمـر مـن القائد بتفتيـش أغـراضي عند الرحيـل، لم يجرؤوا عـلى فتح حقيبـة أمتعتي. بحـقّ الله، لقد خافوا. وأنا سـاعدتهم على أن يخافـوا. في مكان القفل

المعلّق بحبل رفيع إلى سحّاب حقيبتي، وضعت تميمة. بحقّ الله، على هذه التميمة الجلدية الجميلة رسمت شيئاً جعل جواسيس أغراضي، سوداً وبيضاً، شوكولا وتوباب، يفرّون هاربين. عكفت على الرسم عليها بدأب بحق الله. على هذه التميمة الجلدية الحمراء، وبواسطة عظمة جرذ صغيرة مدبّبة غمستها بالرماد الممزوج بزيت المصباح، رسمت يداً صغيرة سوداء صمّاء مقطوعة من المعصم. يد صغيرة، صغيرة جداً، بأصابعها الخمس الصغار المتباعدة والمنتفخة عند أطرافها مثل أصابع السحلية الوردية الشفافة التي نسمّيها «أونك». لسحلية الأونك جلد ورديّ رقيق جداً يسمح برؤية أحشائها داخل جسمها حتى في الظلام. الأونك حيوان خطير لأنه يبول سمّاً.

بحقّ الله، كان مفعول اليد التي رسمتها قوياً جداً. بمجرد تعليقي التميمة على مقبض سحّاب حقيبتي، لم أحتَج إلى تخبئة أياديّ السبع في مكان آخر، أولئك الذين تلقوا الأمر من القائد بفتح الحقيبة للعثور عليها، وجب عليهم أن يكذبوا. لا شك أنهم أقسموا له أنهم بحثوا من دون جدوى عن أياديّ السبع. لكن ما هو مؤكّد هو أن البيض والسود لم يجرؤوا على لمس حقيبتي المقفلة بالتميمة. أنّى لأولئك الجنود الذين ما كانوا يجرؤون على النظر إليّ منذ اليد الرابعة أن يسمحوا لأنفسهم بفتح حقيبتي المقفلة

بتميمة حمراء بلون الدم وشمت عليها يداً سوداء صغيرة مقطوعة بأصابع منتفخة الأطراف مثل أصابع الأونك في ذلك الوقت، كنت سعيداً لأنني كنت في نظرهم ملعوناً، مفترس أرواح. عندما جاء الجدّ الشوكولا صاحب الوسام الحربيّ كي يفتّش أغراضي، كاد يغمى عليه لدى رؤية قفلي السرّي. ولعلّه لام نفسه لأن نظره وقع عليه. كل أولئك الذين رأوا قفلي السرّي، بحقّ الله، لا شك أنهم لاموا أنفسهم لأنهم تطفّلوا أكثر من اللزوم. حين أفكر في كل أولئك الفضوليين الجبناء، لا أستطيع أن أمنع نفسي من الضحك، الضحك بصوت عالٍ داخل رأسي.

أنا لا أضحك أمام الناس كما أضحك في سريرتي. لطالما قال لي والدي العجوز هذا: «وحدهم الأطفال والمجانين يضحكون من دون سبب». أنا لست طفلاً. بحقّ الله، الحرب كبّرتني فجأة، لا سيما بعد موت صديقي الأكثر من أخ مادِمبا ديوب. ولكن على الرغم من موت جان باتيست ما زلت أضحك. على الرغم من موت مادِمبا ديوب، ما زلت أضحك داخل رأسي. في نظر الآخرين، لست أكثر من باسمٍ، لا أسمح لنفسي إلا بالابتسام. بحقّ الله، الابتسامة كالتثاؤب، فهي تستدعي الابتسامة. أبتسم للناس الذين يبتسمون لي ابتسامة جميلة في المقابل. عندما أبتسم لهم لا يستطيعون سماع الضحك المجلجل داخل رأسي

لحسن الحظ، وإلا كانوا ليظنوا أنني مجنون مسعور. وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأيادي المقطوعة. فهي لم تروِ قط ما أنزلتُ بأصحابها من عذاب، لم تحكِ عن الأحشاء الساخنة التي تصاعد منها البخار في برد الأرض المحايدة كما يسمّيها القائد. الأيادي المقطوعة لم تحكِ كيف بقرتُ بطون ثمانية أعداء من أصحاب العيون الزرق. بحقّ الله، لم يسألني أحد قط عن الطريقة التي حصلت فيها على الأيادي. حتى جان باتيست الذي مات بعد أن أطاحت رأسه قذيفة خبيثة أطلقها قنّاص ماهر صاحب عينين زرقاوين متماثلتين. الأيادي السبع التي بقيت معي تشبه ابتسامتي، فهي تكشف وتخفي في الوقت نفسه بطون العدوّ المبقورة وهذا ما يجعلني أجلجل بالضحك في سرّي.

الضحك يستدعي الضحك والابتسامة تستدعي الابتسامة. ولأنني كنت أبتسم طوال الوقت في مركز الراحة هناك في الخلف، الجميع كانوا يبتسمون لي. بحقّ الله، حتى رفاق السلاح الشوكولا أو التوباب الذين كانوا يطلقون الصيحات في عزّ الليل حين تدوّي داخل رؤوسهم صفّارة الهجوم وجلبة الحرب العالية، حتى أولئك بمجرد رؤيتي مبتسماً كانوا يبتسمون. لا يستطيعون ردع أنفسهم عن ذلك. بحقّ الله، هذا أقوى منهم.

الطبيب فرانسوا النحيل صاحب القامة الطويلة والهيئة

الحزينة، كان يبتسم لي ما إن أظهر أمامه. مثلما كان يقول عنّي القائد «قوة الطبيعة»، يقول لي الطبيب فرانسوا بعينيه إنني بصحة ممتازة. بحقّ الله، الطبيب فرانسوا يحبني كثيراً. كان يحجم عن الابتسام للآخرين في حين كان ينفق الابتسامات معي من دون حساب. كل ذلك لأن الابتسامة تستدعي الابتسامة.

ولكن بحقّ الله، الابتسامة التي أحببتها مع ابتسامتي الدائمة وكانت تعني لي الكثير هي ابتسامة الآنسة فرانسوا، إحدى بنات الطبيب العديدات اللواتي يرتدين الأبيض. بحقّ الله، الآنسة فرانسوا تحبني حقاً. بحق الله، الآنسة فرانسوا موافقة مع والدها من دون أن تدري. هي أيضاً قالت لي بعينيها إنني بصحة جيدة، لكنها نظرت بعينيها إلى وسط جسمي وفهمتُ أنها تفكر في شيء آخر غير صحتي. أعرف وأدركت أنها تريد أن تمارس الحب معي. أعرف وظننت أنها تريد أن تراني عارياً كلياً. عرفت ذلك من نظرتها التي كانت كنظرة فاري تيام التي تركتني أضاجعها في غابة الأبنوس الصغيرة ليس بعيداً من النهر، قبيل ساعات من رحيلي إلى الحرب.

أمسكت فاري تيام بيدي ونظرت إلى عينيّ، ثم نظرت خفية إلى الأسفل. فيما بعد، انفصلت عن حلقة الأصدقاء حيث كنا. وبعد قليل من ذهابها ودّعتُ الجميع ولحقتُ بفاري التي كانت

تتجه صوب النهر. الناس في غانديول لا يحبون الذهاب والتسكع ليلاً عند ضفاف النهر بسبب الإلهة مام كومبا بانغ. أنا وفاري لم نصادف أحداً بسبب خوف الناس من إلهة النهر. كنا نرغب في ممارسة الحب فحسب بحيث أننا لم نخشَ شيئاً.

بحقّ الله، لم تلتفت فاري إلى الوراء مرة واحدة. اتجهت نحو غابة الأبنوس الصغيرة، ليس بعيداً من النهر في المنخفض. توارت هناك وأنا تبعتها. حين عثرت عليها، تكهنت أن فاري تسند ظهرها إلى شجرة. كانت تقف قبالتي تنتظرني والقمر مكتمل، لكن أشجار الأبنوس كانت متقاربة بحيث حجبت القمر. حزرت أن فاري تسند ظهرها إلى شجرة، ولكن بحقّ الله، لم أستطع رؤية وجهها. شدّتني نحوها وإذ بها عارية. كانت تفوح من فاري تيام رائحة البخور ومياه النهر الخضراء في الوقت نفسه. عرّتني من ملابسي وتركتها تفعل. سحبتني إلى الأرض واستلقيت فوقها. قبل فاري لم أعرف امرأة، وفاري لم تعرف رجلاً قبلي. من دون أن أعرف كيف، ولجت إلى داخل جسد فاري. بحقّ الله، لقد كان داخل جسدها ناعماً إلى حد غير معقول، كان دافئاً ونديّاً. بقيت من دون حراك وقتاً طويلاً، أخفقُ داخل فاري. فجأة بدأتْ تدحرجُ ردفيها تحتي، بلطف في البداية ثم أسرع فأسرع. لو لم أكن داخل فاري لضحكت بالتأكيد لشدة

مـا كان المشـهد مضحـكاً، لأننـي أنـا أيضـاً بـدأت أهـزّ حقـوي في كل الاتجاهـات، وكل واحـدة مـن حـركاتي تقابلهـا دفعة مـن فاري تيـام. كانـت فـاري تيـام تدفـع بطنهـا نحـوي متأوّهـة، وأنـا أردّ لها اندفاعـات خـصري متنهّـداً. بحـقّ الله، لـو لم يكـن ذلـك ممتعـاً، لو كان لـديّ الوقـت كي أنظـر إلينا بالفكـر كيف نهزهـز واحدنا لصق الآخـر، كنت سـأضحك كثيراً. ولكـن لم يكن بوسـعي أن أضحك، لم يكـن بوسـعي إلا أن أئـنّ فرحـاً وأنـا داخل فـاري تيام. لشـدّة ما هززنـا هكذا وسـط جسـدينا في كل الاتجاهات، ما كان يحـدث دائماً حـدث حينـذاك أيضـاً. وصلـتُ إلى الـذروة داخل فـاري، وصلتُ إلى الرعشـة وأنـا أصرخ. كان ذلـك قويـاً وأفضـل بكثـير مـن يدي. فـاري تيـام صرخـت هـي أيضـاً عندمـا انتهينـا. لحسـن الحـظ لم يسـمعنا أحد.

عندمـا نهضنـا أنا وفـاري تيـام، بالكاد تمكّنـا مـن الوقوف على أرجلنـا. لم أكـن أرى نظرتهـا في ظـلام خميلـة الأبنـوس الصغـيرة. مـع ذلـك، كان القمـر بـدراً عملاقـاً، بلونه المائـل إلى الأصفـر كأنه شـمس صغـيرة تعكس نورها عـلى مياه النهـر الخـضراء. كان يطفئ ضـوء النجـوم مـن حوله لكـن أشـجار الأبنـوس كانـت تحمينا من نـوره السـاطع. ارتدت فاري تيام ملابسـها وسـاعدتني عـلى ارتداء ملابـسي كأننـي ولد صغـير. قبّلتنـي على وجنتـي ثم ابتعـدت باتجاه

غانديـول مـن دون أن تلتفـت. مكثـت هنـاك أنظر إلى القمـر يتلوّى فـوق الميـاه. مكثـت طويـلاً أنظـر إلى النهـر المضطـرم مـن دون أن أفكـر في شيء. بحـقّ الله، كانـت تلـك هي آخـر مرة أرى فـاري تيام قبـل أن أرحـل إلى الحرب.

XV

الآنسة فرانسوا هي إحدى بنات الطبيب العديدات اللواتي يرتدين الأبيض الكامل، نظرت إليّ كما فعلت فاري تيام في المساء الذي أرادت فيه أن نمارس الحب بالقرب من النهر المضطرم. ابتسمتُ للآنسة فرانسوا الفاتنة مثلما فعلتُ لفاري. للآنسة فرانسوا عينان زرقاوان متماثلتان. ردّت لي الابتسامة وتوقف نظرها قليلاً عند وسط جسدي. إنها ليست كوالدها الطبيب، بحقّ الله، إنها حيّة. قالت لي بعينيها الزرقاوين المتماثلتين إنني وسيم جداً من رأسي حتى قدميّ.

ولكن لو كان صديقي الأكثر من أخ مادِمبا ديوب على قيد الحياة كان سيقول لي: «لا، أنت تكذب، لم تقل لك إنك وسيم. لم تقل الآنسة فرانسوا إنها ترغب فيك! أنت كاذب، هذا كذب، أنت لا تعرف الفرنسية!» لكنني لا أحتاج إلى أن أعرف الفرنسية حتى أفهم لغة عيني الآنسة فرانسوا. بحقّ الله أعرف

أنني وسيم، كل العيون تقول لي ذلك. العيون السود والعيون الزرق، عيون الرجال وعيون النساء. عينا فاري تيام قالتا لي، وكذلك عيون نساء غانديول، من كل الأعمار. عيون أصدقائي الصبيان والبنات ألمحوا لي حين كنت أخرج شبه عار فوق بيدر الرمال للعراك. حتى عينا مادِمبا ديوب، من كان أكثر من أخّ، ذاك الصعلوك الهزيل، لم تستطيعا أن تخفيا عني أنني الأجمل أثناء مبارياتي بالمصارعة الحرّة.

كان يحقّ لمادِمبا ديوب أن يقول لي كل ما يريد ويسخر مني، لأن المزاح مشروع بين الأقارب. كان باستطاعة مادِمبا ديوب أن يمازح ويهزأ بسلوكي ليناكدني، لأنه كان أكثر من أخّ. لكن لم يكن بوسعه أن يقول شيئاً عن مظهري، فأنا وسيم جداً، والناس كلهم يبادلونني الابتسامة، باستثناء ضحايا الأرض المحايدة. حين كنت أبتسم كاشفاً عن أسناني البيضاء الناصعة المنضّدة، حتى مادِمبا ديوب أكبر ساخر ولدته الأرض، لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من كشف أسنانه القبيحة. ولكن بحقّ الله، لم يرضَ مادِمبا يوماً أن يحسدني على أسناني، أسناني البيضاء الناصعة، ولا على صدري ومنكبيّ، منكبيّ العريضين الممتلئين، على جذعي وبطني، على فخذيّ الصلبين وعضلاتهما المفتولة. كان مادِمبا يكتفي بأن يترك عينيه تقولان لي إنهما تحسدانني وتحبانني في الوقت نفسه. عندما

كنت أفوز بأربع جولات في المصارعة الحرّة على التوالي، تحت ضوء القمر وأنا أتصبب عرقاً يسيل مني كالنور الأدكن، محاطاً بالمعجبين والمعجبات، لطالما قالت لي عينا مادِمبا: «أنا أغار منك، لكنني أحبك جداً». كانت عيناه تقولان لي: «ليتني كنتُ أنت، لكنني فخور بك». مثل كل الأشياء في هذه الدنيا، لكل شيء وجهان.

الآن وأنا بعيد عن المعركة التي فقدتُ فيها مادِمبا الذي كان أكثر من أخ، بعيد عن القذائف الخبيثة الصغيرة قاطعة الرؤوس وبذور الحرب الحمراء الكبيرة المتساقطة من السماء المعدنية، بعيد عن القائد أرمان وصفّارته التي تستدعي الموت، بعيد عن سلفي العجوز الشوكولا صاحب الوسام الحربيّ إبراهيما سيك، أقول لنفسي: ما كان يجدر بي أن أهزأ من صديقي بتاتاً. كان لمادِمبا أسنان قبيحة، لكنه كان شجاعاً. كان لمادِمبا صدر كقفص الحمام، لكنه كان مقداماً. كانت ساقا مادِمبا نحيلتين إلى حد مخيف، لكنه كان محارباً حقيقياً. أعرف وأدركت أنه لم يكن يجدر بي أن أحرّضه بكلماتي على إظهار شجاعة أعرف أنه يملكها. أعرف وأدركت أن مادِمبا الذي كان يحسدني ويحبني في الوقت نفسه ذهب أول واحد بعد أن أطلق القائد صفّارة الهجوم في يوم موته. فعل ذلك كي يثبت لي أن المرء لا يحتاج إلى أن يكون بأسنان جميلة ومنكبين عريضين وصدر واسع وساقين وذراعين في غاية القوة كي يكون

شجاعاً حقّاً. استنتجت إذن أن كلامي وحده لم يكن هو الذي قتل مادِمبا. ليس كلامي عن طوطم عائلة ديوب، كلامي الجارح كالبذور المعدنية المتساقطة من سماء الحرب هو التي قتله. أعرف وأدرك أن جمالي كلّه، وقوتي كلّها أيضاً، هما اللذان قتلا مادِمبا الأكثر من أخي، مادِمبا الذي كان يحبني ويحسدني في الوقت نفسه. جمال وقوة جسدي هما اللذان قتلاه، نظرة كل النساء إلى وسط جسدي هي التي قتلته. كل تلك النظرات التي كانت تداعب كتفيّ وصدري وذراعيّ وساقيّ، والتي كانت تتوقف عند أسناني المصفوفة على نحو رائع وأنفي الشامخ المقوّس، هي التي قتلته.

حتى قبل أن تبدأ الحرب، وقبل أن نرحل نحن الاثنين إلى الحرب معاً، أنا ومادِمبا، حاول بعض الناس التفريق بيننا. بحقّ الله، أناس أشرار من غانديول قرروا التفريق بيننا حين قالوا لمادِمبا إنني ملعون وألتهم قوة الحياة منه شيئاً فشيئاً أثناء نومه. أهل غانديول أولئك قالوا لمادِمبا -وقد علمت بذلك على لسان فاري تيام التي كانت تحبنا نحن الاثنين-: «انظر إلى ألفا ندياي إنه يشرق جمالاً، وانظر إلى نفسك كم أنت نحيل وقبيح. هو الذي يمتصّ كل قواك الحيوية لمضرّتك ولمنفعته، لأنه شخص ملعون، مفترس أرواح لا يشفق عليك. اتركه، لا

تعاشره، وإلّا أنت تسارع نحو حتفك، وسوف تجفّ أحشاء جسمك لتصبح غباراً!» لكن مادِمبا، وعلى الرغم من كل ذاك الكلام المسيء، لم يتركني وحيداً قط لجمالي المشرق. بحقّ الله، لم يظنّ مادِمبا ديوب قط أنني ملعون. على العكس، حين كنت أراه عائداً وشفته متدلّية، لم أكن أشكّ أنه كان يقاتل كي يدافع عنّي أمام الناس الأشرار في غانديول. فاري تيام هي التي حكت لي ذلك، بالتحديد قبل أن نرحل أنا ومادِمبا إلى الحرب في فرنسا. بفضل فاري التي كانت تحبنا نحن الاثنين فهمت أنه على الرغم من صدره الضيّق الشبيه بصدور الحمام، وذراعيه وساقيه النحيلتين إلى حد يثير الخوف، مادِمبا الأكثر من أخي، لم يكن يخشى ضربات الشبّان الأقوى منه. بحقّ الله، كم يسهل أن تكون شجاعاً حين يكون لديك صدر واسع وذراعان قويتان وساقان صلبتان وممتلئتان مثلي. لكن الشجعان الحقيقيين مثل مادِمبا هم أولئك الذين لا يخافون الضربات على الرغم من ضعفهم. بحقّ الله، الآن أستطيع أن أعترف لنفسي: لقد كان مادِمبا أكثر شجاعة مني. لكنني أعرف وأدرك وقد فات الأوان أنه كان يجدر بي أن أقول له ذلك قبل موته.

وإن كنت لا أتقن لغة الآنسة فرانسوا الفرنسية، غير أنني فهمت لغة عينيها حين نظرت إلى وسط جسدي. لم يكن من

الصعب فهم ذلك، إنها اللغة نفسها لفاري وللنساء كلهن اللواتي رغبن فيّ.

ولكن بحقّ الله، في عالم الماضي لم أكن أرغب في غير فاري تيام. لم تكن فاري أجمل فتاة من عمري، لكن ابتسامتها كانت تحرّك قلبي وتحرّك مشاعري إلى حد كبير. كان لصوتها عذوبة ورقرقة مياه النهر حين تعبرها في الصباح زوارق الصيادين بهدوء. ابتسامة فاري كالصباح، وردفاها مكتنزان بارزان مثل كثبان صحراء لومبول[6]. لها عينا ظبية ولبوة في الوقت نفسه. هي تارة إعصار رمليّ، وتارة سكون المحيط. بحقّ الله، كنت على وشك خسارة صداقتي مع مادِمبا كي أكسب حب فاري. من حسن حظي اختارتني بدلاً من مادِمبا. لحسن حظي، امّحى من كان أكثر من أخي من أمامي. بفضل فاري التي اختارتني أمام أعين الجميع، انسحب مادِمبا لمصلحتي.

اختارتني ذات ليلة من ليالي فصل المطر. كنا قد خططنا لقضاء ليلة بيضاء في حاكورة أهل مادِمبا مع رفاقنا الذين هم في مثل عمرنا، سهرة حتى الفجر نحاول خلالها أن نظهر ذكاءنا بالكلام الحاذق، نشرب الشاي ونأكل الحلويات مع فتيات من أعمارنا، ونتحدث عن الحب بكلام مبطّن. تشاركنا في شراء ثلاث رزم من الشاي المغربي وكيس من السكّر المغلّف بالورق الأزرق

مـن دكان في القريـة. صنعنا بالسـكّر والذرة البيضـاء مئات من قطع الحلـوى. مددنـا فوق رمـل الفناء الناعم بسـاطاً كبيراً. وعند حلول الليـل وضعنـا سـبعة أباريـق من المينـا الحمـراء فـوق رؤوس الفرن المتوهجـة التـي كانـت تئزّ بالـشرر. رتبنـا قطـع الحلـوى الصغـيرة بعنايـة في صـوانٍ معدنيـة كبيرة تحاكـي أواني الخـزف الفرنسـية، كنا قـد اسـتأجرناها مـن الـدكان. ارتدينـا أجمـل قمصاننـا الملونـة كـي تزهـو تحـت ضـوء القمـر. لم أكـن أملـك قميصـاً بـأزرار، فأعطاني مادِمبـا واحـداً صغـيراً جـداً على مقـاسي، لكننـي كنت متألقـاً رغم كل شيء لـدى دخـول الفتيـات الثـماني عـشرة رفيقاتنـا في السـنّ إلى حاكـورة عائلـة مادِمبا.

كنـا في السادسـة عشرة من العمـر وجميعنا كنـا نرغب في فاري تيـام مع أنهـا لم تكـن الأجمـل. اختارتني فـاري تيام من بـين الكلّ. مـا إن لمحتنـي جالسـاً عـلى البسـاط حتـى جـاءت تتربّـع بالقـرب منـي بحيـث لامـس فخذهـا الأيمـن فخـذي الأيـسر. بحـقّ الله، اعتقـدت حينـذاك أن قلبـي سـيحطم ضلوعـي في صـدري لشـدّة خفقانـه، كان يخفـق ويخفـق ويخفـق. بحـقّ الله، منـذ تلـك اللحظة عرفـت معنـى أن يكـون المرء سـعيداً. ما من سـعادة أكـبر من تلك التـي منحتنـي إياهـا فـاري تيام حـين اختارتنـي تحت ضـوء القمر الساطع.

كنا في السادسة عشرة ونريد أن نضحك. حكى كل واحد بدوره قصة قصيرة مسلّية مليئة بالمعاني المضمرة الماكرة، ابتكرنا الأحاجي. انضمّ إلينا أيضاً إخوة وأخوات مادِمبا الصغار الذين غفوا الواحد تلو الآخر وهم يصغون إلينا. أما أنا فقد كنت أشعر بأنني ملك كل الأرض لأن فاري اختارتني ولم تختر غيري. أمسكتُ يد فاري اليسرى ووضعتها في يدي اليمنى فتركتها لي مطمئنة. بحقّ الله، ليس لفاري تيام مثيل. لكن فاري تيام لم تكن تريد أن تمنح نفسها لي. في كل مرة كنت أطلب منها أن تتركني ألجها بعد تلك الليلة التي اختارتني من بين كل رفاقي في السنّ، كانت ترفض. لطالما قالت لي: «كلا»، «كلا»، «كلا»، أربع سنوات بحالها. الصبي والبنت حين يكونان في السنّ نفسها لا يمارسان الحب أبداً حتى لو اختار أحدهما الآخر ليكونا حبيبَين مدى الحياة، شاب وفتاة لهما السنّ نفسها لا يصبحان زوجاً وزوجة أبداً. كنت أعرف ذلك، أعرف هذا القانون الظالم. بحقّ الله، كنت أعرف قانون الأسلاف لكنني لم أكن أتقبّله.

لعلّي بدأت أفكر من تلقاء نفسي حتى قبل موت مادِمبا. كما يقول القائد: «لا يوجد دخان من دون نار». وكما يقول المثل البدويّ: «من تباشير الفجر يُعرف النهار إذا كان يوماً سعيداً أو حزيناً». ربما كان عقلي قد بدأ يرتاب في صوت الواجب المتأنق

المتصنّع ليبدو فاضلاً. ربما كان عقلي يتهيّأ منذ ذاك لأن يقول «لا» للقوانين غير الإنسانية التي تدّعي الإنسانية. لكنني كنت أحتفظ بالأمل على الرغم من تكرار رفضها، حتى وإن كنت أعرف وأدرك لماذا قالت لي فاري تيام: «لا» حتى عشية رحيلنا إلى الحرب، أنا ومادِمبا.

XVI

بحقّ الله، الدكتور فرانسوا رجل طيب. إنه يترك لنا الوقت للتفكير والعودة إلى ذواتنا. الدكتور فرانسوا يجمعنا أنا والآخرين داخل قاعة كبيرة تحتوي على مناضد وكراسٍ مثل المدرسة. أنا لم أذهب إلى المدرسة قط، لكن مادِمبا ذهب. كان يعرف التحدّث بالفرنسية، أما أنا فلا. الدكتور فرانسوا مثل أستاذ في المدرسة يطلب منا أن نجلس على الكراسي، وابنته الآنسة فرانسوا توزع على كل طاولة ورقة وقلماً، ثم يطلب منّا أن نرسم بالإشارات كل ما نريد. أنا أعرف وفهمت أن وراء نظارته التي تكبّر عينيه الزرقاوين المتماثلتين، كان الدكتور فرانسوا ينظر إلى داخل رؤوسنا. لم تكن عيناه الزرقاوان المتماثلتان مثل أعين العدو المقابل تحاول فصل رؤوسنا عن أجسادنا بطلقات صغيرة خبيثة. عيناه الزرقاوان الثاقبتان تتفحّصاننا، تمعنان النظر إلينا كي تنقذا رؤوسنا. أعرف وفهمت أن الهدف من رسومنا هو غسل عقولنا

من أردان الحرب. أعرف وفهمت أن الدكتور فرانسوا هو من سيطهّر رؤوسنا المدنّسة من الحرب.

بحقّ الله، الدكتور فرانسوا يبعث على الراحة في النفس. هو لا يحدّثنا تقريباً، لا يحدّثنا إلا بعينيه. وكان لذلك وقع حسن، فأنا لا أتحدّث الفرنسية على عكس مادِمبا الذي ذهب إلى مدرسة البيض. لذلك، كنت أتحدّث إلى الدكتور فرانسوا من خلال الرسوم. كانت رسومي تُعجب الدكتور فرانسوا الذي كان يقول لي ذلك بعينيه الكبيرتين الزرقاوين المتماثلتين عندما كان ينظر إليّ وهو يبتسم. كان يومئ برأسه وأنا أفهم ما يريد أن يقول لي. كان يريد القول إن ما أرسمه جميل جداً ومعبّر جداً. أعرف وفهمت أن رسومي تروي قصتي. أعرف وفهمت أن الدكتور فرانسوا يقرأ رسومي وكأنها قصة.

أول شيء رسمته على الورقة البيضاء التي أعطاني إياها الدكتور فرانسوا هو وجه امرأة. رسمت وجه أمي. بحقّ الله، في ذاكرتي أمي جميلة جداً، رسمتها بتسريحتها على طراز الشعب الفولاني[7]. لم يكفّ الدكتور فرانسوا عن النظر إلى جمال تفاصيل رسمي. عيناه الزرقاوان الكبيرتان وراء نظارته قالتا لي ذلك صراحة. بقلمي الرصاص وحده منحت الحياة لوجه أمي. عرفت وأدركت بسرعة كبيرة ما الذي يمنح الحياة لوجه مرسوم

بقلم الرصاص، لوجه امرأة مثل وجه أمي. ما يمنح الحياة فوق الورقة هو اللعب بالظل والنور. وضعت بريق نور في عينيّ أمي الواسعتين، بريق النور ذاك برز من التماع بياض الورقة الذي تركته من دون تظليل ولم يقاربها قلمي. حيوية وجهها ظهرت أيضاً في الشذرات الدقيقة في الورقة التي بالكاد لامسها قلمي الرصاص الأسود. بحقّ الله، عرفت وأدركت واكتشفت كيف أستطيع بقلم رصاص بسيط أن أحكي للدكتور فرانسوا عن جمال وحسن أمي الفولانية بحليّها الذهبية المجدولة الثقيلة المعلّقة في أذنيها، وخواتم الذهب الأحمر الرفيعة المشكوكة في طرفي أنفها المقوّس. استطعت أن أخبر الدكتور فرانسوا كم كانت أمي جميلة في ذكريات طفولتي، بجفنيها المرسومين بالفحم، بشفتيها اللتين فتحتهما في الرسم على أسنان بيضاء مصفوفة كحبات اللؤلؤ، وبشعرها المجدول فوق رأسها تتناثر عليه حليّ الذهب. رسمتها بالظل والنور. بحقّ الله، أظن أن رسمي كان يبدو حيّاً جداً حتى إن الدكتور فرانسوا سمع أمي تقول له بثغرها المرسوم إنها ماتت لكنها لم تنسَني. قالت له إنها رحلت وتركتني عند والدي ذاك الرجل العجوز، لكنها لا تزال تحبني.

كانت أمي رابع وآخر زوجة لوالدي. كانت مصدر فرحه قبل أن تصبح مصدر حزنه. كانت أمي ابنة يورو با الوحيدة، يوروبا

الراعـي الفـولانيّ الـذي يمرّ بقطيعه كل عام وسـط حقـول والدي في موسـم انتجـاع الماشـية نحـو الجنـوب. كان قطيعـه القادم مـن وادي نهر السـنيغال يصل في مواسـم الجفاف إلى سـهول نيايه العاشـبة أبداً، القريبـة جـداً مـن غانديـول. كان يـورو بـا يحب والـدي كثـيراً، ذاك الرجـل العجـوز الذي يسـمح لـه بارتيـاد آبـاره العذبة. بحـقّ الله، لم يكـن فلاحو غانديول يحبون رعـاة الفلاة، لكن والـدي لم يكن فلاحاً مثـل الآخريـن. كان قد فتح ممراً وسـط حقولـه نحو آبـاره العذبة من أجـل قطيـع يورو بـا. كان والدي يقـول لكل من يريد سـماعه: «يجب أن يعيـش كل النـاس». كان كـرم الضيافة يجـري في دمه.

لأ تقـدّم الهدايـا الجميلـة إلى رجل فـولانيّ جدير بهذا الاسـم من دون جـزاء. رجـل خليـق بهذا الاسـم مثل يـورو با كان يقـود قطعانه إلى وسـط حقـول والـدي كي يسـقيها مـن آبـاره العذبـة لا يمكن أن يقـصّر لـدى عودتـه في تقديـم هدية هامـة جـداً. بحـقّ الله، أمي هي التـي قالـت لي ذلـك: حين تقـدّم هديـة إلى رجل فولانيّ ولا يسـتطيع ردّهـا قـد يمـوت حزنـاً. حكـت لي أن الرجل الفـولاني قـادر على أن يتجـرّد مـن ثيابـه كـي يُكـرم شـاعراً مدّاحـاً، حتـى وإن لم يبـقَ لديـه سـوى تلـك الثياب كـي يقدمها له. فـولانيّ جدير بهذا الاسـم، قالت لي والـدتي، قـد يصل بـه المطـاف إلى أن يقطـع أذنه حـين لا يبقى لديه شيء يقدّمـه لشـاعر مدّاح سـوى قطعة من جسـمه.

بالنسبة إلى يورو با الأرمل، باستثناء أبقاره البيض والحمر والسود، كان أغلى شيء لديه ابنته الوحيدة وسط أبنائه الخمسة. بحقّ الله، لم تكن ابنته بيندو با بالنسبة إليه تقدّر بثمن. كان يرى أنها تستحق الزواج بأمير ويمكن أن تؤمّن له مهراً ملكياً، قطيعاً كبيراً مثل ذاك الذي يملكه أقله، أو ثلاثين جملاً من قوم المورين[8] في الشمال. بحقّ الله، أمي هي التي روت لي ذلك.

وبما أن يورو با كان فلانياً جديراً باسمه فقد أعلن لوالدي العجوز أنه سيعطيه ابنته ليتزوجها في موسم الانتجاع التالي. لم يطلب يورو با مهراً لابنته. لم يكن يريد سوى شيء واحد: أن يحدّد والدي تاريخ حفلة زفافه إلى بيندو. كان يورو با سيتدبّر الأمر كله، سيشتري الملابس والمجوهرات من الذهب المضفور للعروس، ويذبح عشرين رأس غنم من قطيعه يوم العرس. كان سيدفع للشعراء المدّاحين مقدار عشرة أمتار من القماش الغالي الثمن، من النوع البازيّ[9] المطرّز، وقطعة أخرى هندية من النوع الخفيف مصنوعة في فرنسا.

لا يُقال «لا» لرجل فولانيّ جدير باسمه حين يمنحك ابنته المحبوبة للزواج كي يردّ لك كرم الضيافة الذي أبديته لقطيعه. يمكن أن تقول: «لماذا؟» لرجل فولانيّ جدير بهذا الاسم، ولكن لا يمكن أن تقول: «لا». بحقّ الله، سأل والدي: «لماذا؟»

أجاب يورو با: «باسيرو كومبا ندياي، أنت فلاح بسيط لكنك شهم ونبيل. كما يقول المثل الفولانيّ: «طالما الإنسان على قيد الحياة فهو يخلق من جديد باستمرار». رأيت الكثير من الرجال في حياتي، لكنني لم أرَ واحداً مثلك. استخلصت الفائدة من حكمتك كي أتقدّم في العمر بحكمة. وبما أن لديك حسّ كرم الضيافة مثل أمير، حين أمنحك ابنتي بيندو، أمزج دمي بدم ملك يجهل نفسه. حين أمنحك ابنتي للزواج بها، أصالح ما بين السكون والحركة، الزمن الثابت والزمن الذي يمضي، الماضي والحاضر. أصالح بين الأشجار المتجذّرة في الأرض والريح التي تعبث بأوراقها، ما بين الأرض والسماء». أمي هي التي نقلت لي هذا الكلام.

لا يمكنك أن تقول: «لا» لرجل يمنحك دمه. لذلك، قال والدي الذي كان لديه حينذاك ثلاث زوجات «نعم» للرابعة بموافقة الثلاث الأُول. والزوجة الرابعة لوالدي بيندو با هي التي منحتني الحياة.

ولكن بعد ستة أعوام على زواج بيندو با، ستة أعوام بعد ولادتي، لم يعد يظهر يورو با وأولاده الخمسة وقطيعه في غانديول.

تعاقبت سنتان وبيندو با لا تعيش إلا على انتظارهم. في أول سنة ظلت لطيفة ودودة مع بقية الزوجات، ومع زوجها، ومعي

أنـا ابنهـا الوحيـد، لكنهـا لم تكـن سـعيدة. مـا عـادت تحتمـل الحياة المسـتقرة. وافقـت بينـدو على الـزواج بوالـدي ذاك الرجـل العجوز وكانـت قـد خرجـت مـن سـنّ الطفولة منـذ عهـد قريـب. وافقت عـلى الـزواج به احترامـاً للوعـد، احترامـا ليورو بـا. انتهـى المطاف ببينـدو بـا إلى حـبّ باسـيرو كومبا ندياي والـدي لأنـه كان نقيضها. كان كهـلاً مثـل منظـر لا يتبـدّل، وهـي صغـيرة مثـل سـماء متغيّرة. كان سـاكناً مثـل شـجرة تبلـدي[10] وهـي كانت ابنـة الريـح. أحياناً يفتتـن الضـدّان أحدهمـا بالآخـر لشـدّة مـا همـا متباعـدان. انتهـى المطـاف ببينـدو وأحبـت والـدي ذاك الرجـل العجـوز لأنـه كان يجمـع في جوهره كلّ حكمة الأرض والمواسـم القادمـة. كان والدي العجـوز يدلّـل بينـدو لأنهـا كانـت نقيضه: كانـت الحركـة والتجدّد والمشاكسـة المرحة.

لكـن بينـدو لم تحتمل الاسـتقرار سـبع سـنوات إلا بـشرط، أن يعـود أبوهـا وإخوتها كل عـام إلى غانديـول لرؤيتها. كانـوا يحملون إليهـا معهـم رائحـة السـفر، رائحـة الخيَـم في الفـلاة، رائحة السـهر متيقظـين لحراسـة القطيـع مـن الأسـود الجائعـة. كانـوا يحملـون في أعينهـم ذكـرى المـواشي التائهة عـلى الطريـق، والتي يعثـرون عليها دائـماً، حيّـة أو ميّتـة، ولم يهملوهـا يوماً. كانـوا يحدثونها عـن الطريق الـذي أضاعـوه بسـبب غبـار النهـار ليعـودوا ويجـدوه في ضـوء

النجوم. كانوا يحكون لها بلغتهم الفولانية المغرّدة عن حياتهم المتنقلة عاماً كاملاً في كل مرة يمرون عبر غانديول ليقودوا قطيعهم الكبير من الأبقار البيض والحمر والسود نحو سهول عائلة ندياي المعشوشبة دائماً وأبداً.

لم تكن بيندو با تحتمل غانديول إلا بانتظار عودتهم. بدأت تذوي منذ السنة الأولى على غيابهم. توقفت عن الضحك كلياً منذ السنة الثانية التي لم يظهروا فيها. خلال موسم الجفاف، حين كان من المفترض أن يكونوا هناك، كانت تأخذني كل صباح إلى الآبار التي كان يورو با يسقي منها قطيعه. كانت تنظر بأسى إلى الطريق الذي فتحه والدي وسط حقوله من أجله وتصيخ السمع على أمل أن تلتقط أذناها العجيج البعيد لماشية والدها وإخوتها. كنت أنظر خلسة إلى عينيها المذعورتين بالوحدة والحسرات حين كنا نعود نحن الاثنين إلى غانديول على مهلنا بعد ساعات من الانتظار من دون أمل عند تخوم قريتنا الشمالية البعيدة.

كنت قد بلغت التاسعة من عمري عندما طلب والدي من بيندو با التي يعشقها أن ترحل للبحث عن يورو با وإخوتها وقطيعهم. كان يفضّل أن يراها ترحل على أن تموت. أعرف وأدرك أن والدي يؤثر معرفة والدتي حيّة بعيداً منه على أن يراها ميّتة على بابه، ممدّدة في مقبرة غانديول. عرف ذلك وأدركه، لأن

والـدي أصبـح عجوزاً مـذ غادرتنا بينـدو. بين ليلة وضحاها شـابَ شـعره كليـاً. بين يـوم ويـوم انحنى ظهـره وتوقـف عن الحركـة. ما إن رحلـت بينـدو حتـى بدأ والـدي ينتظرهـا. بحـقّ الله، لم يفكر أي إنسـان في السـخرية منه.

كانـت بينـدو تريـد أن تأخـذني معهـا لكـن والـدي العجـوز رفـض. قـال والـدي إننـي صغـير جـداً عـلى الذهـاب في مغامـرة كهـذه. لـن يكـون مـن السـهل العثـور عـلى يـورو بـا ومعهـا طفل صغـير يعيـق حركتهـا. لكنني كنـت أعـرف وأدرك أن والـدي كان يخشـى في الحقيقـة ألا تعود بينـدو مطلقاً إن ذهبت معهـا. حين أبقى في غانديول، سـيكون هناك سـبب قـوي لكي تعـود إلى البيت. بحقّ الله، كان والـدي يعشـق حبيبتـه بينـدو.

ذات مسـاء، قُبيـل رحيلها، ضمّتنـي بيندو بـا إلى صدرها. قالت لي بلغتهـا الفولانيـة المغـرّدة التـي لم أعد أفهمهـا وأسـمعها منذ ذلك الحـين، إننـي صبـيّ كبـير وبإمـكاني سـماع أسـبابها. كان يجـدر بها أن تعـرف مـا الـذي حـدث لجـدّي وأخـوالي وقطيعهـم. لا نتخـلّى أبداً عـن أولئك الذيـن ندين لهم بحياتنـا. بمجرد أن تعرف سـتعود فوراً: لم تكـن لتتخـلّى عن أولئـك الذين تدين لهـم بحياتها. بحـقّ الله، كلام والـدتي أشـعرني بالراحـة وبالألم. شـدّتني بـين ذراعيها ولم تقل شـيئاً بعدهـا. وأنـا مثـل والدي، مـا إن رحلـت، حتى بـدأت أنتظرها.

طلب والدي، ذاك الرجل العجوز، من أخي الأكبر نندياغا الصياد أن يوصل بيندو بالقارب النهري إلى أبعد ما يمكن نحو الشمال، ثم نحو الشرق. أُذن لي بأن أصحب أمي مدة نصف نهار. كان نندياغا قد ربط زورقاً صغيراً بالقارب الكبير الذي كان يحملنا أنا وأمي وساليو أخي الآخر الذي كان من المفترض أن يعيدني إلى غانديول حين تحين الساعة. جلسنا أنا وأمي على مقعد في مقدمة القارب صامتين يمسك أحدنا بيد الآخر، ننظر إلى أفق النهر من دون أن نراه حقيقة. كان تمايل القارب على هوى ترنحه يلقي برأسي بين الحين والحين على كتف بيندو العارية وأحس بحرارة جلدها الخاطفة على أذني اليمنى، لكنني سرعان ما تعلّقت بذراعها كي لا يبتعد رأسي عن كتفها. كنت أحلم بأن تحتجزنا الإلهة مام كومبا بانغ طويلاً وسط النهر، على الرغم من إراقة اللبن الرائب الذي قدّمناه لها قبل مغادرتنا ضفاف القرية. صلّيتُ كي تطوّق قاربنا بذراعيها المائيّتين الطويلتين، ويؤخّر شعرها البنيّ من الأعشاب النهرية تقدّمنا، على الرغم من ضربات مجاديف أخويّ القوية بإيقاع وانسجام على ظهرها لمقاومة مجراها القوي. كان نندياغا وساليو صامتَين يلهثان من شدة عنائهما، هما فلاحا النهر، يشقّان أخاديد غير مرئية فوق صفحة المياه. كانا حزينين جداً عليّ بقدر ما كانا مغمومَين على

أمـي التـي تفـترق عـن ولدهـا الوحيـد. حتى إخـوتي من غـير أمي كانـوا يحبـون بينـدو با.

حـان وقت الفـراق. خفضنـا رؤوسـنا وأعيننا بصمـت، مددنا أيادينـا المضمومـة نحو أمـي كي تباركنا. سـمعناها تهمـس صلوات لا نعرفهـا، صلـوات تبريـك طويلة مـن القـرآن كانت تعرفهـا أكثر منـا. وعندمـا صمتـت، أمررنا راحـات أيدينا على وجوهنـا كي ننال أقـل نفحـة منها، كمـن ينهل مـن نبع تلك الصلـوات. ثـم انتقلنا أنا وسـاليو إلى القـارب الصغـير الـذي كان ندياغا قد فكّـه بحركة فظّة سريعـة كظـم فيهـا غضبـه في داخلـه، وأمسـك دموعه التـي طفرت مـن عينيـه. حينئـذ نظـرت إليّ أمـي بحـدّة كـي تثبّـت صـورتي في ذاكرتهـا. وحـين أبعد تيـار النهر الخفيـف قـاربي، أدارت لي ظهرها. أعـرف وأدركـت أنهـا لم تكن تريـدني أن أراهـا تبكي. بحـقّ الله، إن امـرأة فولانيـة جديـرة بهذا الاسـم لا تبكـي أمام ابنهـا. أمـا أنا فقد بكيـت، بكيـت كثيراً.

لا أحـد يعرف مـاذا حلّ ببيندو بـا حقيقة. أوصلهـا أخي ندياغا بقاربـه حتـى مدينـة سـانت لويـس. هنـاك ائتمن عليهـا صيـاداً آخر اسـمه سـاديبو غايه كان مـن المفـترض أن يوصلها في قاربـه التجاريّ لقـاء ثمـن خـروف، إلى والاده في ديـري، حيـث ينصـب يـورو بـا وأبنـاؤه الخمسـة وقطيعهـم خيامهـم عـادة في مثـل هـذا الوقـت من

السنة. لكن مياه النهر كانت ضحلة آنذاك، لذلك عهد ساديبو غايه ببيندو إلى أحد أبناء أعمامه، شخص اسمه بادارا دياو، لمرافقتها سيراً على الأقدام بمحاذاة ضفة النهر حتى بلدة والاده. قبل قرية مبويو بقليل رآهما شهود عيان، ثم اختفيا في المنطقة الريفية المنعزلة. لم تصل أمي وبادارا دياو إلى بلدة والاده قط.

علمنا ذلك بعد أن سئم والدي من انتظار أخبار بيندو ويورو با سنة بحالها، وأرسل أخي نندياغا ليسأل ساديبو غايه الذي ذهب بدوره على الفور إلى بودور حيث يعيش بادارا دياو. كانت عائلة بادارا دياو لا تعرف أخباراً عنه منذ شهر وكانت قد أرسلت بدورها من يبحث عنه على الطريق الذي أعلن ارتياده مع أمي. رَوَوا لساديبو غايه وهم يبكون بحرقة عن المصيبة التي حلّت بهما ولا شك. كان بادارا وبيندو قد خطفهما بالتأكيد بُعيد خروجهما من مبويو عشرة فرسان من موريّي الشمال، فقد رأى القرويون آثارهم على ضفاف النهر. موريو الشمال يهاجمون عادة السود ليأخذوهم عبيداً. أعرف وأدركت أنهم حين رأوا بيندو الجميلة الحسناء، لم يتوانوا في خطفها كي يبيعوها لشيخهم الأكبر مقابل ثلاثين جملاً. وأعرف وأدرك أنهم خطفوا مرافقها بادارا دياو كي لا نتعرّف إلى من يجدر بنا الأخذ بالثأر منه.

لذلك ما إن علم والدي بخبر خطف بيندو با من قبل

المورييـن حتـى دخـل في مرحلـة الشـيخوخة نهائيـاً. اسـتمر في الضحـك والابتسـام لنـا، اسـتمر في المـزاح عـلى العالم وعلى نفسـه، لكنـه لم يعـد كـما كان قـط. بحـقّ الله، لقـد فقـدَ فجـأة دفعـة واحدة نصـف شـبابه، فقـدَ نصـف فرحـه في الوجـود.

XVII

الرسم الثاني الذي رسمته للدكتور فرانسوا كان وجه مادِمبا صديقي الأكثر من أخ. كان هذا الرسم أقل جمالاً، لا لأنني لم أفلح في رسمه جيداً، بل لأن مادِمبا كان قبيحاً. ما زلت أعتقد ذلك، وإن لم يكن ذلك صحيحاً تماماً، بل لأنه، وعلى الرغم من الموت الذي فرّقنا، لا يزال المزاح بين الأقارب قائماً بيننا نحن الاثنين. ولكن وإن كان مادِمبا أقل جمالاً مني في المظهر، إلا أنه أجمل مني بكثير من الداخل.

بعد أن رحلت أمي من دون عودة، استقبلني مادِمبا في بيته. أمسك بيدي وأدخلني إلى حاكورة أهله. انتقلتُ للإقامة في بيت مادِمبا شيئاً فشيئاً. نمتُ هناك ليلة، ثم ليلتين متتاليتين، ثم ثلاثاً. بحقّ الله، كان دخولي إلى حياة عائلة مادِمبا على مهل بعد أن فقدت أمّي. مادِمبا الذي حزن عليّ أكثر من أي شخص في غانديول، أراد أن تتبناني أمه. أمسك بيدي وأخذني إلى أميناتا

سـار. وضـع يـدي في يـد أمه وقـال لهـا: «أريـد أن يعيش ألفـا بيننا، أريـدك أن تصبحـي أمـه». لم تكـن زوجـات والـدي خبيثـات، على العكـس، كـنّ في غايـة اللطـف معـي، لا سـيما الأولى والـدة ندياغا وسـاليو. ولكـن عـلى الرغـم مـن كل شيء، خرجـت بهـدوء مـن عائلتـي كي أدخـل إلى عائلة مادِمبـا. والدي الرجـل العجوز، وافق عـلى ذلـك مـن دون أن يقـول شـيئاً. قـال: «نعـم»، لأميناتـا سـار والـدة مادِمبـا التـي أرادت أن تتبنـاني. حتـى إن والـدي طلـب مـن زوجتـه الأولى أيـدا مبينـغ أن تعطـي في كل عيد أضحـى قطعة كبيرة مـن لحـم خـروف العيـد لأميناتا سـارّ. انتهى بـه المطاف إلى إرسـال ذبيحـة كاملـة في كل عـام إلى حاكـورة عائلـة مادِمبـا. لم يكن بوسـع والـدي العجـوز أن يـراني مـن دون أن تطفـر الدمـوع مـن عينيـه. أعـرف وأدرك كـم أشـبه حبيبتـه بينِدو.

شـيئاً فشـيئاً رحـل الحـزن. شـيئاً فشـيئاً جعلتنـي أميناتـا سـار ومادِمبـا أنسـى الألم الـذي كان ينهـش قلبـي، همـا والزمـن العابـر. في البدايـة كنـا نذهـب أنـا ومادِمبـا للّعـب في الفـلاة، ناحية الشـمال دائـماً. كنـا نعـرف ونـدرك الـسرّ فيـما بيننـا، لكننـا كنـا نتسـتّر عـلى أملنـا في أن نكـون أول مـن يشـاهد أمـي بينـدو ويـورو بـا وأولاده الخمسـة وقطيعهـم مجـدداً. كنـا نحكـي لأميناتا سـار عـن رحلات الاستكشـاف هـذه التـي كنـا نقـوم بهـا مـن أجـل التقـاط جـرذان

النخيل في المصيدة، واصطياد اليمام بقاذفات الحصى. كانت تعطينا زوّادة طعام صغيرة وقربة ماء بارد وتذرّ علينا ثلاث رشّات من الملح كي تمنحنا بركتها. ولكن عندما كنا نصطاد سناجب الحقول واليمامات ونشويها، بعد أن نفرغها وننتف ريشها ونقطّع أجسامها ثم نخوزقها لنضعها فوق نار ضعيفة نوقدها من الغُصينات الجافة، كنا ننسى أمي ووالدها وإخوتها الخمسة وقطيعهم. لدى رؤية ألسنة اللهب البرتقالية تفرقع في موقدنا الصغير، يؤججها بين الحين والحين الدهن السائل من الجلد المتشقّق لغنيمتنا التي اصطدناها من الدغل، كنا ننسى التفكير في ألم الغياب الموجع لنفكر في الجوع الذي يلوي أحشاءنا أكثر. لم نعد نحلم بأن بيندو تمكنت من الهرب من أسرها الموروويّ بمعجزة خارقة وعثرت في والاده على والدها وإخوتها الخمسة وقطيعهم، وعادوا كلهم إلى غانديول. في ذلك الزمان القريب جداً من حدث اختطاف أمي، لم يكن بوسعي التغلب على غيابها الذي لا شفاء منه إلا باللعب لعبة صيد السناجب واليمام وطبخها مع مادِمبا الذي كان أكثر من أخي.

كبرنا على مهل أنا ومادِمبا. شيئاً فشيئاً تخلينا عن نزهاتنا في طريق غانديول الشمالي لانتظار عودة بيندو. في الخامسة عشرة من عمرنا، تم طهورنا في اليوم نفسه، وتلقينا أسرار سنّ البلوغ على

يد شيخ القرية نفسه الذي علّمنا السلوك في الحياة. أعطانا أكبر الأسرار حين قال لنا إن الإنسان لا يوجّه الأحداث، بل الأحداث هي التي توجّهه. تلك الأحداث التي تفاجئ الإنسان، مرّ بها بشر آخرون قبله وعاشوا معها المشاعر المحتملة كلها. لا شيء مما يحدث لنا في هذه الدنيا جديداً، سواء كان خطيراً أو جميلاً، ولكن ما نشعر به هو الجديد دائماً، لأن كل إنسان فريد، مثلما هي أوراق الشجرة، كل ورقة فيها فريدة. الإنسان يشارك بقية البشر في النسغ نفسه، لكنه يتغذّى به بطريقة مختلفة. حتى وإن كان هذا الجديد ليس جديداً فعلاً، لكنه يبقى جديداً دائماً بالنسبة إلى أولئك الذين يرتمون في هذا العالم باستمرار، جيلاً بعد جيل، موجة بعد أخرى. ولكي تهتدي إلى طريقك في الحياة ولا تتيه عن السبيل، عليك أن تصغي إلى صوت الواجب. إن كثرة التفكير من تلقاء نفسك خيانة. من يدرك هذا السرّ يكن محظوظاً ويعش بسلام، ولكن لا ضمانة في ذلك تماماً.

أصبحتُ طويل القامة وقوياً، أما مادِمبا فقد ظلّ قصيراً ونحيلاً. في كل سنة وفي موسم الجفاف، كانت الرغبة في لقاء بيندو تخنقني وتدفعني إلى حدّ البكاء. لم أكن أعرف كيف أبعد أمي عن ذهني سوى بإنهاك جسدي. عملت في حقول والدي وكذلك في حقول سِيره ديوب والد مادِمبا. رقصت، سبحت،

قاتلت، في حين بقي مادِمبا جالساً يدرس، يدرس دائماً وأبداً. بحقّ الله، حفظ مادِمبا كتاب الله كما لم يفعل أحد في غانديول. كان يتلو القرآن الكريم عن ظهر قلب وهو في سنّ الثانية عشرة، بينما كنت بالكاد أتلعثم في صلواتي وأنا في الخامسة عشرة. عندما أصبح مادِمبا أكثر علماً من شيخنا، أراد الذهاب إلى مدرسة البيض. سيره ديوب الذي لم يكن يريد أن يبقى ابنه فلاحاً مثله، وافق شرط أن أرافقه. رافقته سنوات طويلة حتى باب المدرسة من دون أن أتجاوز عتبتها إلا مرة واحدة. لا شيء يمكنه أن يدخل إلى رأسي. أعرف وأدرك أن ذكرى والدتي كانت تجمّد سطح ذهني كلّه ليصبح مثل هيكل سلحفاة. كنت أعرف وأدرك أن لا شيء تحت تلك القوقعة سوى فراغ الانتظار. بحقّ الله، كان مكان العلم محجوزاً وانتهى أمره. لذلك آثرت العمل في الحقول، أرقص وأقاتل كي أختبر قوتي إلى أقصى حدودها، كي لا أفكر في استحالة عودة أمي بيندو با. إلى حين موت مادِمبا فقط، انفتح ذهني ليتيح لي رؤية ما كان يخفيه. وكأن موت مادِمبا سقط من السماء مثل بذرة كبيرة من بذار الحرب المعدنية وفلقت قوقعة رأسي نصفين. بحقّ الله، دهم رأسي ألم جديد فوق ألمي القديم. الاثنان تواجها، تفاهما، وأعطى كل منهما معنى للآخر.

عندما بلغنا العشرين من عمرنا، أراد مادِمبا الذهاب إلى

الحرب. كانت المدرسة قد وضعت في رأسه فكرة إنقاذ وطنه الأم فرنسا. كان يريد أن يصبح شخصية هامة في سانت لويس، مواطناً فرنسياً: «ألفا، العالم واسع وأنا أريد أن أطوف العالم. الحرب فرصة كي نغادر غانديول. إذا شاء الله، سنعود سالمَين معافَين. بعد أن نصبح مواطنَين فرنسيَين، سوف نستقرّ في سانت لويس ونعمل بالتجارة. سنصبح تاجرَي جملة ونزوّد بقاليات شمال السنغال كلها بالمواد الغذائية، بما فيها محال غانديول! وما إن نصبح ثريين سوف نبحث مجدداً عن أمك ونعثر عليها وندفع فديتها للفرسان الموريين الذين اختطفوها». مشيت وراء حلمه. بحقّ الله، كنت مَديناً له بذلك فعلاً. ثم فكّرت في ما لو أصبحت شخصية هامّة، قنّاصاً سنيغالياً مدى الحياة، من المحتمل أن أذهب مع مفرزتي لمداهمة قبائل الموريين في الشمال بسلاحي النظامي بيدي اليسرى وخنجري الوحشيّ بيدي اليمنى.

في أول مرة قالت اللجنة التي تختار الجنود «لا» لمادِمبا. كان مادِمبا شديد النحول وخفيفاً مثل طائر الغرنوق المتوّج. كان غير أهل للحرب، لكنه كان عنيداً بحقّ الله. طلب مني أن أساعده كي يصبح مقاوماً للتعب الجسديّ، هو الذي كان حتى ذلك الحين مقاوماً للتعب الذهنيّ فحسب. لهذا أجبرت قوة مادِمبا الصغيرة على أن تكبر أكثر فأكثر مدة شهرين كاملين. جعلته

يركض فوق الرمال الثقيلة تحت الشمس الحارقة في عزّ النهار. جعلته يقطع النهر سباحة، يحرث حقول والده بالمجرفة ساعات وساعات. بحقّ الله، أرغمته على تناول كميات هائلة من مغلي الذرة البيضاء الممزوج باللبن الرائب، ومعجنات الفول السوداني كما يفعل المصارعون الأبطال حين يُتخمون بالطعام.

في المرة الثانية، قالت اللجنة التي تختار الشبان: «نعم». لم يتعرّفوا إليه. كان قد تحوّل من طير غرنوق إلى حَجَل كبير جداً. رسمتُ للدكتور فرانسوا الضحكة التي طفرت على وجه مادِمبا ديوب يوم قلت له إذا كان يريد أن يصبح مصارعاً، فقد عثرت على لقبه: صدر اليمامة! رسمت بالظلّ والنور غضون عيني مادِمبا ضاحكاً عندما أخبرته أن طوطمه لن يتعرّف إليه لكثرة ما نما عليه الريش.

XVIII

عشـية رحيلنا إلى الحرب في فرنسـا، قالت لي فـاري تيام: «نعم» بعينيهـا، خفيـة وسـط البنـات والصبيـان مـن عمرنـا. حـدث ذلك في أمسـية مقمـرة. كنـا في العشريـن مـن العمـر ونريـد أن نضحك. جلسـنا نـروي حكايـات مصيره مضحكـة مليئـة بالتلميحـات الماكـرة وبالأحاجـي. تلـك السـهرة، هذه الليلـة البيضـاء، لم نقضِها في حاكـورة أهـل مادِمبـا كـما حدث قبـل أربـع سـنوات. كان إخوة وأخـوات مادِمبـا قد كـبروا كثيراً كـي يغفوا عـلى حكاياتنـا الملغزة. جلسـنا فـوق حصـير كبـير عنـد زاويـة شـارع رمـليّ مـن شـوارع قريتنـا، في ظـلّ شـجرة مانجـا أغصانهـا واطئـة. كانـت فـاري أجمل مـن أي وقـت مـضى بفسـتانها الزعفـراني الأصفـر الـذي كان يلفّ صدرهـا وخصرهـا ووركيهـا. بـدا لـون ثوبهـا تحـت ضـوء القمـر ناصـع البيـاض. رمقتنـي فـاري بنظـرة خاطفـة وعميقـة أرادت أن تقـول بهـا: «انتبـه يـا ألفـا! سـوف يحـدث شيء هـام!» شـدّت على

يـدي كـما فعلـت في ذاك المسـاء الـذي اختارتنـي فيـه عندمـا كنـا في السادسـة عـشرة، نظـرت خلسـة إلى وسـط جسـمي، ثـم وقفـت واسـتأذنت الرحيـل مـن المجلـس. انتظـرت أن تتـوارى في زاويـة الشـارع ونهضـت بـدوري ألحـق بها مـن بعيد حتـى غابـة الأبنوس الصغـيرة حيـث لا نخـاف أن نلتقـي إلهـة النهـر مـام كومبـا بانـغ، لشـدة مـا كنـا نشـتعل بالرغبـة نحـن الاثنـين، أنـا في أن ألـج عمـق جـوف حقوهـا، وهـي في أن أضاجعهـا.

أنـا أعـرف وأفهـم لمـاذا فتحـت لي فاري تيـام داخل جسـدها قبـل أن نذهـب إلى الحـرب أنـا ومادِمبـا. كان داخـل جسـد فاري دافئـاً، ناعـماً، طريّـاً. لم يسـبق لي أن لمسـت لا بفمـي ولا بجلـدي شـيئاً بـدفء ونعومـة وطـراوة جسـد فـاري تيـام. ذاك الجـزء من جسـدي، ذَكـري الـذي ولـج داخـل فـاري تيـام، لم يسـبق لـه أن تلقـى مثـل هـذه المداعبـة الآسرة مـن الأعـلى إلى الأسـفل، ولا حتـى حـين كنـت أغرسـه في الرمـل الدافـئ عـلى شـاطئ المحيـط كـي أسـتمني وأنـا منبطـح عـلى بطنـي، ولا تحت ميـاه النهـر خفية بمداعبـات يـديّ الزلقتـين. بحقّ الله، لم أعـرف قط شـيئاً أجمل من هـذا في حيـاتي، شـيئاً أكثـر مـن نعومـة ودفـء داخل جسـد فاري، أعـرف وأدرك لمـاذا جعلتنـي أذوق عسـيلتها عـلى حسـاب شرف عائلتهـا.

أظـن أن فـاري بدأت التفكـير من تلقاء نفسـها قبـلي. أظن أنها أرادت مـن جسـد في غايـة الجمال مثل جسـدي أن يعـرف متعة هذه اللـذة قبـل أن يموت في الحرب. أعـرف وأدرك أن فـاري أرادت أن تصنـع منـي رجـلاً كامـلاً قبـل أن أرحـل وأقـدّم جسـدي النضير، جسـد المصـارع الجميل، لطلقـات الحـرب الدامية. هذا هو السـبب الـذي جعـل فـاري تيـام تمنـح نفسـها لي عـلى الرغـم مـن موانـع الأسـلاف. بحـقّ الله، لقـد شـعر جسـدي بكل أنـواع الملـذات قبل فـاري تيـام. خَـبِرَ قوتـه في المصارعـات الحـرة التـي كانـت تجـري واحـدة تلـو الأخـرى، دفعتـه إلى السـباقات الطويلـة فـوق رمـال الشـاطئ الثقيلـة بعـد أن يعـبر النهـر سـباحة. نضحتـه بميـاه البحر تحـت شـمس جهنميـة، أنعشـته بالمـاء البـارد المسـتخرج مـن أعمق آبـار غانديـول بعـد أن ضربـت بالمعـول حقـول أبي وحقـول سـيره ديـوب سـاعات وسـاعات طـوالاً. بحـقّ الله، لقـد عرف جسـدي متعـة بلـوغ حـدود قوتـه، ولكـن لا شيء كان بقـوة داخـل فـاري الدافـئ اللذيـذ الطـريّ. بحـقّ الله، قدّمـت لي فـاري أجمـل هديـة يمكـن أن تقدّمهـا امـرأة لرجل عشـية ذهابه إلى الحـرب. ليس هناك عـدل في أن يمـوت المـرء من دون أن يعـرف متع الجسـد كلها. بحقّ الله، أعـرف تمـام المعرفة أن مادِمبـا لم يعرف هذه المتعـة، متعة الولوج إلى داخـل جسـد امرأة. أعـرف ذلك، لقـد مات مـن دون أن يصبح

رجلاً كاملاً. كان يمكن أن يصبح كاملاً لو أنه عرف العذوبة الرقيقة، الندية والطرية لداخل امرأة محبوبة. مسكين مادِمبا غير المكتمل.

أعرف وأدرك السبب الآخر الذي جعل فاري تيام تفتح لي داخل جسدها قبل أن نرحل إلى الحرب أنا ومادِمبا. حين وصلت أخبار الحرب إلى القرية، أدركت فاري تمام الإدراك أن فرنسا وجيشها قد يخطفانني منها. عرفت وأدركت أنني وإن لم أمت في الحرب، فلن أعود إلى غانديول. عرفت وأدركت أنني سأستقرّ في سانت لويس مع مادِمبا ديوب، وأنني أريد أن أصبح شخصية هامة، قنّاصاً سينغالياً مدى الحياة مع معاش كبير كي أخفّف عن والدي في سني حياته الأخيرة، وكي أعثر على أمي بيندو با ذات يوم. أدركت فاري تيام أن فرنسا ستختطفني منها، سواء متُّ أو بقيت حيّاً.

لهذا السبب أيضاً قدّمت لي فاري داخل جسدها الدافئ الطريّ الرطب، قبل أن أرحل إلى أرض التوباب وأحارب، رغماً عن شرف عائلة تيام، رغماً عن الحقد الذي يكنّه والدها لوالدي.

XIX

عبـدو تيـام زعيـم قريتنا غانديـول. قانـون الأعـراف والتقاليد هـو الـذي وضعـه في ذلـك المنصـب. وهـو يكـره والـدي الرجـل العجـوز لأنـه جعلـه يفقد مـاء وجهه أمـام النـاس. كان عبـدو تيام جـابي الضرائـب في القريـة، ولذلـك دعا ذات يـوم أعيـان القرية إلى مجلـس كبـير، وسرعـان ما أحـاط بـه كل أهـل غانديول. بإيحـاء من مبعـوث الملـك، وبتحريض من مراسـل حاكم سـانت لويـس، قال عبـدو تيـام إنه يجـدر اتبـاع طريقة جديـدة لزراعـة الفول السـوداني بـدلاً من الـذرة البيضـاء والطماطم والبصـل والملفـوف والبطيخ... سـيعطي الفـول السـوداني الفائض من المـال للجميع مـن أجل دفع الضرائـب وتقديـم شـباك جديـدة للصياديـن وحفـر آبـار جديدة. سـيتحوّل مـال الفـول السـوداني إلى منازل مـن الآجر ومدرسـة من الصلـب وصفيـح يتدلّى فوق أسـطح المنازل. ويمكـن أن يتحوّل إلى قطـارات وطـرق ومحركات لقـوارب النهـر الطويلة ومسـتوصفات

ودور توليد. ختم الزعيم عبدو تيام قوله: سيعفى مزارعو الفول السوداني من عمل السخرة والعمل الإجباري. أما المتمردون فلا يُعفون.

حينئذ وقف والدي العجوز وطلب أن يتكلم. كان قد غزا الشيب شعره مذ غادرتنا بيندو با حتى صار مثل خوذة على رأسه. أنا آخر أبنائه أقول: كان والدي جندياً طوال حياته، فهو لم يعش يوماً إلا ليحافظ على زوجاته وأولاده. يوماً بعد يوم في نهر الحياة هذا، أشبعنا من ثمار حقوله وبساتينه. والدي الرجل العجوز، ربّانا وكبّرنا لنكون بصحة جيدة نحن عائلته، مثل النباتات التي كان يطعمنا منها. كان زَرّاع أشجار وفاكهة، وزَرّاع أولاد. كنا ننبتُ منتصبين أقوياء مثل البذور التي يزرعها في تربة حقوله الرَّقاقة.

وقف والدي ذاك الرجل العجوز وطلب أن يتكلم. مُنح له ذلك فقال:

«أنا باسيرو كومبا ندياي، حفيد سيدي مالامين ندياي، ابن حفيد حفيد أحد مؤسسي قريتنا، سوف أقول لك يا عبدو تيام كلاماً لن يعجبك. أنا لا أرفض أن أخصّص أحد حقولي لزراعة الفول السوداني، لكنني أرفض أن أكرّسها كلها لزراعة الفول السوداني. الفول السوداني لا يمكن أن يُطعم عائلتي. عبدو تيام، أنت تقول إن الفول السوداني معناه المال، ولكن بحقّ الله، أنا

لا أحتاج إلى المال. أطعم عائلتي من الذرة والطماطم والبصل والفاصولياء الحمراء والبطيخ، وكلها تنبت في حقولي. عندي بقرة تعطيني حليبها، عندي بضعة خراف تمنحني لحمها. أحد أبنائي صياد وهو يجلب لي السمك. تذهب زوجاتي لاستخراج الملح من الأرض كل السنة. بكل هذه الأغذية، أستطيع حتى أن أفتح باب بيتي لمسافر جائع، أستطيع أن أفي ذمتي بواجبات الضيافة المقدسة كلها».

«ولكن لو زرعت الفول السوداني فقط، من سيطعم عائلتي؟ من سيطعم كل المسافرين العابرين الذين أدين لهم بكرم الضيافة؟ مال الفول السوداني لا يمكن أن يطعمهم كلهم. أجبني يا عبدو تيام، ألن أصبح مرغماً على المجيء إلى دكانك كي أشتري منه الطعام؟ عبدو تيام، ما سأقوله لك لن يعجبك، ولكن من واجب زعيم القرية أن يهتم بمصلحة الجميع قبل أن يهتم بمصلحته. عبدو تيام، أنا وأنت متساويان ولا أريد أن أكون مجبراً ذات يوم على المجيء إلى دكانك كي أشحذ منك الأرز بالدَين، الزيت بالدَين، السكر بالدَين لأهلي. لا أريد أيضاً أن أغلق بابي في وجه مسافر جائع لأنني أنا نفسي جائع.

عبدو تيام ما سأقول لك لن يعجبك. ولكن في اليوم الذي سوف نزرع كلنا الفول السوداني في كل الأنحاء في القرى

المجاورة، سوف ينخفض سعره. ودخلنا سيتناقص أكثر فأكثر وقد ينتهي بك الأمر بأن تعيش أنت نفسك بالدين، وصاحب الدكان الذي ليس لديه سوى الزبائن سيصبح هو نفسه مديناً لمورديه». أنا باسيرو كومبا ندياي، عرفت السنة التي سُمّيت بـ«سنة الجوع». لا بد أن المرحوم جدّك حدثك عنها. كانت السنة التي أتت بعد الجراد، الجفاف الكبير، سنة الآبار الجافة والغبار العاصف من الشمال، سنة النهر المنخفض كي نسقي حقولنا. كنت طفلاً صغيراً، لكنني أتذكّر أننا لو لم نتشارك في كل شيء خلال ذاك الموسم الحار الجهنمي، لو لم نتشارك في مؤننا من الذرة والفاصولياء الحمراء، ومدخراتنا من البصل والبَقرة، لو لم نتشارك في حليبنا وخرافنا، لمتنا جميعاً. عبدو تيام، لم ينقذنا الفول السوداني في ذلك الوقت، ومال الفول السوداني لم ينقذنا أيضاً. كي نبقى على قيد الحياة في ذلك الجفاف الشيطاني، كان علينا بالتأكيد أن نأكل بذار السنة التالية، وإعادة شراء غيرها من الأشخاص أنفسهم الذين بعنا لهم فولنا السوداني بالسعر الذي يقرّرونه. منذ تلك اللحظة سنغدو فقراء إلى الأبد، شحّاذين إلى الأبد! ولهذا، وإن كان هذا الكلام لا يعجبك، أقول: «لا» للفول السوداني وأقول: «لا» لمال الفول السوداني!»

خطاب والدي لم يعجب عبدو تيام قط وغضب أشد الغضب من دون أن يظهر عليه ذلك. لم يرُقْ عبدو تيام أن يقول عنه والدي إنه زعيم سيّئ. ولم يعجبه أيضاً أن يأتي على ذكر دكانه. لذلك، كان آخر شيء في العالم يمكن أن يوافق عليه عبدو تيام هو أن يزوّج ابنته فاري بأحد أبناء باسيرو كومبا ندياي. لكن فاري تيام قررت غير ذلك. فاري تيام منحت نفسها لي في غابة الأبنوس الصغيرة قبل أن أرحل إلى الحرب في فرنسا. كانت فاري تحبني أكثر من شرف والدها الذي لا يملكه.

XX

الشيء الثالث الذي رسمته للدكتور فرانسوا هو الأيدي السبع. رسمتها كي أتمكن من أن أراها مجدداً بشكل حقيقيّ، كما كانت عندما قطعتها. انتابني فضول شديد كي أعرف كيف ستتشكّل من الظل والنور والورقة وقلم الرصاص فيما لو أعيد إحياؤها في عينيّ كما عاد وجه أمي ومادِمبا إلى الحياة. فاقت النتيجة التوقعات. بحقّ الله، عندما رسمت الأيدي، شعرت أنها كانت تشحّم وتلقّم وتُفرغ البندقية التي كانت تحملها في الحال قبل أن تفعل سكيني فعلها وتفصل اليد عن ذراع المتوسلين إليّ هناك في الأرض المحايدة. رسمتها الواحدة بمحاذاة الأخرى على الورقة البيضاء الكبيرة التي أعطتني إياها الآنسة فرانسوا. لا بل حرصت كل الحرص على رسم الشعيرات على ظهر كل منها شعرة شعرة، وكذلك أظفارها السود، والبتر الناجح أو المخفق لرسغها.

كنت أشعر بالرضى الشديد. يجدر القول إن الأيدي السبع لم تعد بحوزتي إذ فكرت أنه من الصواب التخلص منها. ثم إن الدكتور فرانسوا كان قد بدأ ينظف داخل رأسي جيداً من قذارات الحرب. أياديّ السبع كانت الغضب، الانتقام، جنون الحرب، وأنا لم أعد راغباً في رؤية ضراوة الحرب وجنونها، شأني شأن قائدي الذي لم يعد يحتمل رؤية أياديّ السبع في الخندق. لذلك قررت في إحدى الأمسيات أن أدفنها. بحقّ الله، انتظرت ليلة مقمرة كي أفعل ذلك. أعرف وأدرك أنه لم يكن يجدر بي دفنها في ليلة مقمرة. أعلم وأدرك أنه يمكن أن يكشفوني من الجناح الغربي لملجئنا وأنا أحفر كي أخفيها. لكنني فكرت أيضاً بأنني مدين لأيادي المتضرعين لي في الأرض المحايدة بدفن لائق تحت ضوء القمر، اختبأ القمر حينذاك ليتستّر عليّ أمام أعينهم. ماتوا جميعاً في ظلمات الأرض المحايدة. إنهم يستحقون بعض الضوء.

أعلم وأدرك أنه لم يكن يجدر بي فعل ذلك. بعد أن انتهيت من دفنها، مرتبة داخل صندوق مقفل بقفلي السحريّ، وأثناء عودتي إلى الملجأ، أظنني شاهدت ظلاً ينسلّ وراء إحدى النوافذ الكبرى للجناح الغربي. أعلم وأدرك أن شخصاً في الملجأ كشف سرّي. لهذا انتظرت بضعة أيام قبل أن أرسم أياديّ. انتظرت لأرى إذا كان هناك أحد سيشي بي، ولكن لا أحد تكلم. حينذاك ولكي

أغسل داخل رأسي بدلاء مياه سحرية، رسمت أياديّ السبع. يجب أن أريها للدكتور فرانسوا كي تخرج من داخل رأسي.

أياديّ السبع تكلمت، اعترفت بكل شيء للقضاة. بحقّ الله، أعرف وأدرك أن رسمي وشى بي. بعد أن رآها الدكتور فرانسوا، لم يعد يبتسم لي.

XXI

أيـن أنـا؟ أشـعر أننـي أعـود مـن بعيـد. مـن أكـون؟ لا أعرف حتـى الآن. تغلفنـي الظلـمات، لا أرى شـيئاً، لكنني أشـعر بالحرارة شـيئاً فشـيئاً تعيد إليّ الحيـاة. أحاول أن أفتـح عينين ليسـتا عينيّ، أن أحـرّك يديـن لا تخصاننـي لكنهـما ستصبحان لي بعـد قليـل، أشـعر بذلـك. سـاقاي هنـا... عجبـاً، أحـسّ بـشيء تحـت حلم جسـدي. المـكان الـذي أتيـت منـه، أقسـم لـك، كل شيء فيـه سـاكن. المكان الـذي أتيـت منـه، ليـس لنـا فيـه أجسـاد. لكننـي الآن، أنـا الذي لم آتِ مـن العـدم، أشـعر أننـي عـلى قيـد الحيـاة. أحـسّ أنني أتجسّـد. أحـسّ باللحـم الغـارق ب\في الدم الأحمر السـاخن يغلفنـي. أحسّ لصـق بطنـي وصـدري المرتقبين جسـداً آخر يتحـرك وينفث الدفء في جسـدي. أشـعر بـه يدفّـئ جلـدي. المـكان الـذي أتيـت منـه، أقسـم لـك ليـس فيـه دفء، المـكان الـذي أتيـت منـه، ليس لنـا فيه أسـماء. سـوف أفتـح جفنـين لم يصبحا جفنـيّ حتـى الآن. لا أعرف

من أكون. ما زلت ناسياً اسمي، لكنني سأتذكّره بعد قليل. عجباً، الجسد تحتي لم يعد يتحرك. شيء غريب، أحسّ بحرارته الساكنة تحتي. ما هذا! أحسّ فجأة بيدين تجسّان ظهري، ظهري الذي لم يكن لي كلياً حتى الآن، حقواً ليس حقوي، عنقاً ليس عنقي، لكنني كنت أستعيد ذاتي بفضل اليدين الناعمتين اللتين تلمسانني. كم هذا غريب! فجأة تضربني اليدان على ظهري وحقوي، تخمشان عنقي. بفضل خدشهما، الجسد الذي لم يكن جسدي حينذاك صار جسدي. أقسم لك إن مغادرة العدم لأمر رائع. أقسم لك إنني كنت فيه من دون أن أكون.

كل شيء على ما يرام، استعدت جسدي. لأول مرة أشعر باللذة في داخل امرأة. أقسم لك، إنها أول مرة. أقسم لك إن الأمر شهيّ، شهيّ للغاية. حتى ذلك الحين لم أشعر باللذة داخل امرأة، لأنني لم أكن أملك جسداً. صوت قادم من البعيد البعيد يقول لي: «هذا أفضل من الاستمتاع بيدك!» هذا الصوت الآتي من البعيد يهمس في أذني: «هذا قوي مثل أول قذيفة تنفجر في هدوء الفجر وتشعرك بالغثيان». إنه الصوت الآتي من بعيد يقول لي أيضاً: «لا شيء أجمل من هذا في العالم». أعرف وأدرك أن هذا الصوت الآتي من بعيد سوف يمنحني اسماً. أعرف وأدرك أن هذا الصوت سيعمّدني قريباً.

المرأة التي منحتني لذة الجسد مستلقية تحتي، ساكنة، مغمضة العينين. أقسم لك إنني لا أعرفها ولم أرَها قط. فضلاً عن ذلك، هي التي منحتني عينين كي أرى حين ظهرت أمامي. أقسم لك إنني أرى بعينين ليستا عينيّ، وألمس بيدين لا أعرفهما. هذا لا يصدّق، ولكن أقسم لك إنها الحقيقة. ذَكَري كما يسمّيه الصوت الآتي من بعيد هو الآن داخل جسد امرأة مجهولة. أستطيع أن أحسّ بحرارة داخل جسد هذه المرأة التي تشدّ عليه من الأعلى إلى الأسفل. أقسم لك، أشعر أنني أسكن جسدي مذ سكنتُ جسد تلك المرأة المجهولة. إنها تحتي لا تتحرك، عيناها مغمضتان، ولا أعرف من تكون. أقسم لك إنني لا أعرف لماذا رضيتْ أن تستقبل ذَكري في داخلها. كم هو مضحك أن ترى نفسك مستلقياً فوق امرأة مجهولة. غير أن ما هو مضحك أكثر في الحقيقة هو أن تشعر أنك غريب عن جسدك.

أرى يديّ للمرة الأولى، أحرّكهما، أقلّبهما على جانبي رأس تلك المرأة التي أستلقي فوقها. عيناها مغمضتان. أستند إلى مرفقيّ فأحسّ بثدييها يلامسان صدري. بوسعي هكذا أن أراقب يديّ تتحركان بالقرب من رأسها. لم أكن أتخيلهما كبيرتين إلى هذا الحد. أقسم لك إنني كنت أظنهما أصغر وأصابعي أرفع. لا أدري لماذا، ولكن في هذه الوضعية بالذات وجدت يديّ

كبيرتـين، كبيرتـين جـداً. هـذا غريـب، ولكن حـين أثنـي أصابعي، حين أشـدّ عـلى قبضتـيّ وأفتحهما، أرى يـديّ مصارع. إنـه الصوت الخافـت الآتي مـن بعيـد هو الـذي همـس لي إن لي مـن الآن فصاعداً يـديّ مصـارع. هـذا مدهـش، عـليّ أن أتحقـق إذا كان مـا بقـي مـن جسـمي هو جسـم مصـارع. يجب أن أتحقـق حالة جسـمي من دون أن يكـون جسـمي. يجـب أن أفصل جسـدي عن جسـد تلـك المرأة المجهولـة تحتـي والتـي تبدو غافيـة. الغريب أننـي لا أنظر إليهـا ملياً مـع أنهـا تبـدو جميلة في عينـيّ. أظـن أنني أحـب النسـاء الجميلات، ولكن عليّ أن أتحقّق من جسـمي وأرى إذا كان يشـبه جسـم مصارع كـما يدّعـي الصـوت الآتي مـن بعيد.

أبتعـد عن المـرأة الجميلة ذات العينـين الغافيتين المسـتلقية تحتي. كـم هـو مضحـك أن أسـمع صـوت انفصـال جسـدينا. أرغـب في الضحـك. أحـدث ذلـك فرقعـة خافتـة مثل تلـك التـي يحدثها طفل يُخـرج إبهامـه مـن فمـه بسرعة حـين تباغتـه أمه التـي نهته عـن ذلك. هـذه الصـورة القادمـة مـن البعيـد تضحكنـي داخـل رأسي. عجيب كيـف رأيـت نفسـي مسـتلقياً إلى جانـب امـرأة غريبـة. كـم كان قلبي يخفـق بسرعـة عندما حاولـت اكتشـاف بقيـة جسـدي إذا كانت مثل يـديّ. رفعـت ذراعيّ نحو سـقف الغرفة الأبيض، ذراعـاي الاثنتان: أقسـم لـك إنهـما بدتـا كجـذوع شـجرة المانغـا المعمّـرة. أعدتهـما إلى

جانبـيّ جسـدي. رفعـت سـاقيّ باسـتقامة نحـو سـقف الغرفـة الأبيـض:، أقسـم لـك إنهـما مثـل جذعَـي شـجر التبلـدي. مـدّدت سـاقيّ عـلى السرير وقلـت لنفسي: كم هـو غريب أن ترى نفسـك في جسـد مصارع كامـل. كم هو غريـب أن تأتي إلى العـالم وأنت في حالة جسـدية ممتازة وتكتشـف قوتـك الكبرى. أقسـم لك إننـي لا أخاف المجهـول، لا أخاف شـيئاً، أنا محـارب حقيقي. لكن الأكثـر غرابة هو أن تولـد في جسـد محارب رائـع إلى جانب امرأة حسـناء عوضاً عن أن تولـد في جسـد صعلـوك إلى جانـب امـرأة قبيحة.

أنـا لا أخـاف المجهـول. أقسـم لـك، حتـى إنني لا أخـاف ألا أعـرف اسـمي. جسـدي يقـول لي إننـي محـارب وهـذا يكفينـي. لا حاجـة لمعرفـة اسـم عائلتي، جسـدي يكفينـي. لا حاجـة لمعرفة أين أنـا، جسـدي يكفينـي. لا حاجـة لأي شيء آخـر مـن الآن فصاعداً إلا لاكتشـاف قـوة جسـدي الجديد. رفعـت مرة أخرى نحو سـقف الغرفـة البيضاء ذراعـيّ الصلبتين الشـبيهتين بجذعي شـجرة مانغا. تبـدو لي يـداي بعيدتـين عـن كتفـيّ أكثـر مما كنـت أظن. أشـدّ على قبضتـيّ ثـم أفتحهـما، أشـدّهما ثـم أفتحهـما مجـدداً. كم هـو بديع أن أرى عضـلات ذراعـيّ تتحـركان تحـت جلـدي. ذراعـاي أثقـل مما كنـت أظـن، تكمن فيهـما قوة مكبوتـة تبـدو لي جاهـزة للانفجار في كل لحظـة. لكننـي لا أخـاف المجهول.

XXII

شكراً لك آنسة فرانسوا! بحقّ الله، أنا لم أخطئ. حتى وإن كنت لا أتحدث الفرنسية، أعرف وأدرك ماذا تعني نظرة الآنسة فرانسوا إلى وسط جسدي. في حديث العيون، لا مثيل للآنسة فرانسوا. أخبرتني عيناها بوضوح أن عليّ المجيء إلى غرفتها في المساء نفسه الذي لامست وسط جسدي.

تقع غرفة الآنسة فرانسوا في آخر الممرّ المطليّ بالأبيض الساطع، كان يلمع تحت نور القمر وراء كل نافذة من النوافذ التي عبرت أمامها من دون صوت. المهم ألا يعرف الدكتور فرانسوا أنني ذاهب لملاقاة ابنته. وحارس الملجأ في الجناح الغربي، يجب ألا يلمحني أيضاً. كان باب غرفتها مفتوحاً. عندما دخلت إلى هناك كانت نائمة، فاستلقيت بالقرب منها. استيقظت وبدأت تصرخ فقد ظنتني شخصاً آخر. ألصقتُ يدي اليسرى على فم الآنسة فرانسوا التي راحت تتخبط وتتخبط. ولكن كما

يقـول القائـد: أنا قـوة الطبيعة. انتظـرت أن تتوقف. توقفت الآنسـة عـن الحركـة، فنزعـت يـدي عـن فمهـا. كانـت تبتسـم لي. حينئـذ ابتسـمت لهـا أنـا أيضـاً. شـكراً لـك آنسـة فرانسـوا لأنـك فتحـت لي ثَلمـك الصغـير ليـس البعيـد عـن أحشـائك. بحـقّ الله، المجـد للحـرب! وبحـقّ الله، لقـد غطسـت في داخلهـا كـما تغطـس في تيار نهـر تريـد عبوره بسـباحة سريعـة. بحـقّ الله، لقد نكحتهـا بضربات مـن خـصري حتى أوشـكت على شـقّ بطنهـا. بحق الله، أحسسـت فجـأة بطعـم الـدم في فمـي. بحـقّ الله، لم أفهم السـبب.

XXIII

سألوني عن اسمي، لكنني انتظرت أن يكشفوه لي. أقسم لك إنني لم أعد أعرف من أنا. لا أستطيع أن أقول لهم ماذا أشعر. حين أنظر إلى ذراعيّ الشبيهتين بجذوع شجر المانغا وساقيّ الشبيهتين بجذوع شجر التبلدي، أرى نفسي أكبر مدمّر للحياة. أقسم لك، أشعر أن لا شيء يمكن أن يقاومني، وأنني عصيّ على الموت وبإمكاني أن أسحق الصخر بالضغط عليه بذراعيّ العاريتين. أقسم لك أن ما أحسّ به يصعب قوله ببساطة: لا تكفي الكلمات للحديث عنه. لذلك استنجدت بكلمات قد تبدو غريبة عما سأقول، لعلّ وعسى تترجم ما أحسّ به على الرغم من معناها الاعتيادي. في الوقت الحاضر، أنا لست سوى ما يشعر به جسدي، الذي يحاول أن ينطق من خلال فمي. لا أعرف من أكون، لكنني أعرف ما يمكن أن يقول لي جسدي عني، صلابة جسدي وقوته الفائضة لا يمكن أن تعنيا في ذهن

الآخرين سوى المعركة، القتال، الحرب، العنف، الموت. يؤاخذني جسدي على جسدي المقاوم، ولكن لماذا صلابة جسدي وقوته الفائقة لا يمكن أن توحيا بالسلام والهدوء والسكينة أيضاً؟

صوت خافت، خافت جداً آتٍ من البعيد البعيد يقول لي إن جسدي جسد محارب. أقسم لك إنني عرفت محارباً في عالم الأمس، لا أذكر اسمه. هذا الجسد الصلب الذي ألفيت نفسي فيه من دون أن أعرف من أكون ربما يكون جسده. لعلّه غادره كي يترك لي مكاناً، بداعي الصداقة، بداعي الشفقة. هذا ما يهمسه لي صوت خافت بعيد داخل رأسي.

XXIV

«أنـا الشـبح الـذي يفـترس الصخـور والجبـال والغابـات والأنهـار، أفـترس لحـم الحيوانـات ولحـم البشر. أسـلخ الأجسـاد وأفـرغ الجماجـم. أبـتر الأذرع والأرجـل والأيـدي. أهشّـم العظـام وأمتـصّ نخاعهـا. لكننـي أيضـاً القمـر الأحمـر الـذي يعلـو فـوق النهـر، أنا نسـمات المسـاء التـي تحـرّك أوراق الأكاسـيا الناعمـة. أنا الدبّـور والزهرة. أنا السـمكة المرتعشـة والقارب السـاكن، الشـبكة والصيـاد أيضـاً. أنا السـجين والسـجّان. أنا الشـجرة والبـذرة التي أعطـت ابنتهـا. أنـا الأب والإبـن. أنـا المجـرم والقـاضي. أنـا البِذار والغـلال. أنـا الأم والابنـة. أنـا الليـل والنهـار. أنـا النـار والحطب الـذي يغذّيهـا. أنا الـبريء والمذنـب. أنا البدايـة والنهاية. أنـا الخالق والمدمّـر. أنـا اثنان».

الترجمة ليسـت بالأمر اليسـير عـلى الإطلاق، هي قاب قوسـين أو أدنـى مـن الخيانـة. إنها عمل ملتبس، مسـاومة على جملة في سـبيل

جملة أخرى. الترجمة هي أحد أفعال البشر التي يضطرون فيها إلى الكذب حول التفاصيل لنقل الحقيقة بالمجمل. الترجمة هي المخاطرة بالفهم أكثر من الآخرين أن حقيقة الكلام ليست واحدة، إنما حقيقتان، لا بل ثلاث، أو أربع، أو خمس. الترجمة هي ابتعاد عن حقيقة الله التي يعرفها ويؤمن بها كل إنسان، وهي واحدة.

«ماذا قال؟ تساءل الجميع. هذا لا يشبه أي جواب متوقع. لا يفترض بالجواب المتوقع أن يتجاوز الكلمتين، أو حتى ثلاث كلمات كحدّ أقصى. كل الناس لها اسم واسم عائلة، اسمان كحدّ أقصى».

بدا المترجم متردّداً، فزعاً من النظرات الصارمة التي يشوبها القلق والغضب والتي تنصبّ عليه. تنحنح ثم ردّ على الضباط الكبار بصوت خافت بالكاد يُسمع:

«قال إنه الموت والحياة في الوقت نفسه».

XXV

أظـن أننـي أعـرف الآن مـن أكـون. أقسـم لـك بحـقّ الله إن الصـوت الخافـت القـادم مـن البعيـد البعيـد داخـل رأسي تركنـي أحـدس. شـعر الصـوت الخافـت أن جسـدي لا يسـتطيع أن يبـوح لي بـكل شيء عـن ذاتي، وأدرك هـذا الصـوت أن جسـدي يلتبـس عـليّ. أقسـم لك إن جسـدي الخـالي من النـدوب هو جسـد غريب. للمصارعـين والمحاربـين نـدوب. أقسـم لـك بحـقّ الله إن جسـد مصـارع يخلـو مـن النـدوب ليس طبيعياً. هـذا يعني أن جسـدي لا يمكـن أن يـروي حكايتـي. هـذا يعنـي، إنـه الصوت الخافـت الآتي مـن البعيـد البعيـد هـو الـذي قـال لي ذلـك، إن جسـدي هو جسـد ملعـون. جسـد مفـترس أرواح نـال كل الحظـوظ كـي لا يحمـل النـدوب.

كل النـاس تعـرف حكايـة ذاك الأمير الذي خـرج من حيث لا نـدري كي يتـزوّج الابنة المشاكسـة لأحـد الملوك المغروريـن. ذكّرني

الصوت الخفيض القادم من البعيد البعيد داخل رأسي بالحكاية. لقد كانت ابنة الملك المغرور صاحبة المزاج المتقلب تريد رجلاً من دون ندوب، رجلاً لا تاريخ له.

الأمير الذي خرج توّاً من الأدغال كي يتزوجها لم يكن يحمل أية ندبة. كان خارق الجمال فأعجبت به الأميرة المدللة، لكنه لم ينل إعجاب مربيتها، فقد عرفت وأدركت من أول نظرة أن الأمير الفاتن الجميل هو ساحر. عرفت ذلك وأدركته لأنه لم يكن يحمل أي ندبة. الأمراء مثل المصارعين لديهم ندوب دائماً. الندوب تروي تاريخهم. الأمراء كالمقاتلين يحتاجون إلى ندبة واحدة أقله كي يجعل منها الآخرون حكاية عظيمة. من من دون ندبة لا وجود للمحمة. من دون ندبة لا وجود لاسم عظيم. من دون ندبة لا وجود للشهرة. لهذا السبب أخذ الصوت الخافت داخل رأسي كل شيء على عاتقه. لهذا السبب تركني أحزر اسمي، ذلك لأن الجسد الذي أسكنه، الجسد الذي وُهب لي، لا يحمل أية ندبة.

عرفت مربية الأميرة المدلّلة وأدركت أن الأمير الخالي من الندوب لا يحمل اسماً، وحذّرتها من خطر من لا اسم له، ولكن من دون جدوى. الأميرة المدللة تريد رجلها خالياً من الندوب، لا تاريخ له. حينذاك أعطت المربية أميرتها المدللة ثلاثة طلاسم

وقالـت لهـا: «إليـك بيضـة وقطعة خشـب وحصـاة. يـوم تتعرضين لخطـر كبـير، ارمي الأشـياء الثلاثة من فـوق كتفك اليـسرى الواحد تلو الآخـر وسـوف تنجّيك».

بعـد زواج الأمـيرة الأمـير الفاتـن الجميـل الخـارج تـواً مـن الأدغـال، آن أوان رحيلهـا إلى مملكـة زوجهـا. لكـن مملكـة زوجهـا كانـت في مـكان مجهـول. كلـما كانـت الأمـيرة المدللـة تبتعـد عـن قريتهـا يقـلّ عدد الحـرّاس المرافقين لهـا وكأن الغابة كانـت تبتلعهم. اسـتعاد كل واحـد منهـم مظهـره الحقيقـي - واحـد أرنـب بـريّ، وواحـد فيـل، وآخـر ضبـع، وآخر طـاووس، وغـيره أفعى سـوداء أو خـضراء، وآخـر غرنـوق متـوّج، وآخـر جُعـل أسـوَد. ذلك لأن زوجهـا الأمـير الفاتـن الجميـل كان سـاحراً كـما تكهّنـت المربيـة، سـاحراً – أسـداً احتجزهـا لديـه عبـدة مـدة طويلـة داخـل كهـف مخفـيّ في الغابـة المتشـعبة.

ندمـت الأمـيرة المدللـة أمـرّ النـدم لأنهـا لم تصـغِ إلى صـوت مربيتهـا، صوت الحكمة، الصـوت المحذّر. ألفت نفسـها في مكان لا تعرفـه، مكان لا اسـم له، فيه الرمال تشـبه الرمال، والأشـجار تشـبه الأشـجار، والسماء تشـبه السـماء، مكان يختلط فيه كل شيء والأرض نفسـها لا تحمل ندوباً كعلامـات فارقة، الأرض نفسـها لا تاريخ لها.

هكـذا هربـت الأمـيرة حـين اسـتطاعت إلى ذلك سـبيلاً، لكن

الساحر - يالأسد انطلق في إثرها على الفور. كان يعرف أنه إذا فقد الأميرة فسوف يفقد معها حكايته الوحيدة، ومعنى وجوده، وحتى اسمه كساحر - أسد. عندما تهرب الأميرة، تعود أرضه من جديد أرض لا أحد، ذلك لأن الأميرة هي التي كانت علّة وجودها بسبب نزوتها. لن تُبعث أرضه من جديد إلا بعودة الأميرة المدللة إلى مملكة الكهف خاصته. حياة الساحر- الأسد نفسها تتعلّق بعينيّ وأذنيّ وفم الأميرة المتقلبة المزاج. من دونها سيبقى جماله الخالي من الندوب غير مرئي، من دون وجودها، سيبقى زئيره غير مسموع، من دون صوتها، ستمحى مملكته الكائنة في الكهف من الوجود.

عندما أوشك أول مرة على الإمساك بها، رمت من فوق كتفها اليسرى البيضة التي أعطتها إياها المربية فتحولت إلى نهر عظيم. ظنت الأميرة المدللة أنها نجت، لكن الساحر - الأسد شرب مياه النهر كلها. وعندما أوشك للمرة الثانية على الإمساك بها، رمت من فوق كتفها اليسرى قطعة الخشب الصغيرة التي تحولت إلى غابة لا يمكن اختراقها. لكن الساحر - الأسد استطاع اقتلاعها وعندما كان الساحر-الأسد على وشك الإمساك بها للمرة الثالثة كانت الأميرة قد بدأت تلمح قرية والدها ومربيتها. رمت من فوق كتفها اليسرى آخر الطلاسم، الحصاة الصغيرة

التي تحولت إلى جبل عالٍ، تسلقه الساحر-الأسد ونزل بقفزات واسعة. على الرغم من ذلك العائق السحري ظلّ الساحر الأسد يلاحقها. لم تعد تجرؤ على الالتفات إلى الخلف خوفاً من أن تقترب منها صورة الخطر البعيد بشكل أسرع. كانت تسمع تناوب خطواته تضرب الأرض. هل كان الرجل الحيوان يركض على ساقيه أوعلى قوائمه الأربع؟ ظنت أنها تسمع لهاثه الوحشيّ. بدأت تشمّ رائحته، رائحة النهر والغابة والجبل، رائحة الحيوان والإنسان عندما حدث فجأة ما لم تتوقعه. من حيث لا تدري، ظهر صياد يحمل القوس والنشّاب وقتل الساحر-الأسد الذي كاد يثب على الأميرة المدللة بسهم أصابه في القلب تماماً. كانت تلك أول وآخر ندبة للساحر-الأسد. بفضل الأميرة صار الناس يروون حكايته منذ تلك اللحظة.

عندما صُرع الساحر-الأسد وهوى على الأرض في غيمة من الغبار الأصفر، سُمع صوت عظيم يدوّي داخل الغابة القصيّة. اهتزّت الأرض، وارتعش ضوء النهار. مملكة الكهف، مملكة باطن الأرض، انبعثت إلى نور الشمس. من قلب أرض مملكة الساحر المجهولة تكسّرت جروف صخرية عالية بصخب عظيم. كل الناس شاهدوا انبعاث تلك الجروف في سماء الغابة. صار بالإمكان من الآن فصاعداًرؤية مملكة الكهف بفضل

ندوب الأرض العالية تلك. صار بالإمكان رواية حكايتها الآن.

الصياد-المنقذ هو الابن الوحيد للمربية صاحبة الطلاسم الثلاثة. كان دميماً وفقيراً، لكنه أنقذ الأميرة المدلّلة. مكافأة على شجاعته، زوّج الملك المغرور المدلّلة من الصياد-المنقذ المغطّى بالندوب. كان رجلاً ذا تاريخ.

أقسم لك إنني سمعت حكاية الساحر-الأسد قبل أن أذهب إلى الحرب مباشرة. هذه الحكاية هي مثل كل الحكايات الشائقة، قصيرة ومليئة بالمعاني المضمرة الماكرة. من يروي حكاية معروفة كتلك التي تحكي عن الساحر-الأسد والأميرة المدلّلة يمكنه أن يخفي فيها حكاية أخرى. كي تُفهم الحكاية الخفية من وراء الحكاية المعروفة يجب أن تكشف عن نفسها قليلاً. إذا اختبأت كثيراً وراء الحكاية الأصلية، فسوف تبقى غير مرئية. يجب أن تكون الحكاية الخفية هناك من دون أن تكون، يجب أن تترك من يكشفها مثلما يكشف الثوب الزعفراني الأصفر الذي يلف حنايا جسد الفتاة الجميلة. يجب أن تكون شفّافة يفهمها من كانت الحكاية موجّهة إليه. قد تغيّر الحكاية المخفية وراء الحكاية الأصلية حياته وتدفعه إلى أن يحوّل رغبة كامنة في داخله إلى عمل محسوس. قد تشفيه من مرض التردّد، خلافاً لكل ما يتوقعه الحكواتي خبيث النية.

أقسم لك إنني سمعت حكاية الساحر-الأسد ليلاً وأنا جالس ليلاً فوق حصير ممدود على الرمل الأبيض برفقة فتيان وفتيات من عمري، نحتمي تحت الأغصان الواطئة لشجرة المانغا العجوز.

أقسم لك إنني، مثل كل أولئك الذين سمعوا حكاية الساحر-الأسد الخالي من الندوب في تلك الأمسية، عرفت وأدركت أن فاري تيام فهمتْ أنها المعنية. أعرف ذلك، وأدركته عندما نهضت واستأذنت الرحيل من بيننا. أعرف وأدركت أن فاري تيام لا تبالي إذا كنا نراها أميرة متقلبة المزاج. أعرف وأدركت أنها كانت ترغب في الساحر-الأسد. ألفا ندياي الأكثر من أخي، الرجل صاحب طوطم الأسد، عندما وقف بدوره بعد فاري بقليل، عرفت وأدركت أنه ذاهب للقائها كي يجامعها. أعرف وأدرك أن ألفا ندياي وفاري تيام التقيا في غابة الأبنوس الصغيرة ليس بعيداً من النهر الجارف. منحت فاري نفسها لألفا قبل أن نرحل نحن الاثنين إلى الحرب في فرنسا. أعرف ذلك، لأنني كنت هناك من دون أن أكون، أنا من هو أكثر من أخيه.

لكنني الآن حين أفكر في كل ذلك بعمق، الآن حين ألتفت إلى نفسي بحقّ الله، أعرف وأدرك أن ألفا ندياي أزاح لي مكاناً في جسده المصارع من باب الصداقة والعطف. أعرف وأدركت أن

ألفا سـمع أول توسّـل وجهتـه إليه من باطـن الأرض المحايـدة ليلة مماتي. لأنني لم أكـن أرغـب في البقـاء وحيـداً وسـط مـكان مجهول تحـت أرض لا اسـم لها. بحقّ الله، أقسـم لك، في اللحظـة التي أفكر فينـا، منـذ الآن أنـا هو وهـو أنا.

شرح بعض المفردات

1- شوكولا: كلمة يطلقها البيض على شعوب إفريقيا السوداء.

2 -توباب: كلمة يستخدمها كل قاطني إفريقيا للإشارة إلى البيض الأوروبيين بغض النظر إلى أي جنسية ينتمون.

3- الطوطم: أي كيان يمثل رمز القبيلة، وأحيانا يُقدّس باعتباره المؤسس أو الحامي. قد يكون صنماً أو رسماً تعتقد جماعة ما أنه ذو صفات روحانية خارقة ضمن مقدساتها وميراثها.

4 - الغرنوق الرماديّ المتوّج: طائر من فصيلة طيور الكركي يستوطن في إفريقيا ويعدّ في أوغندة رمزاً وطنياً.

5- المزاح بين الأقارب: عادة اجتماعية يمارسها معظم سكان إفريقيا الغربية تقضي بالاستهزاء وتبادل الشتائم بين العائلات أو بين الإثنيات لتخفيف حدة التوتر فيما بينها.

6- صحراء لومبول: تقع في شمال غربي السنيغال على بعد 10 كيلومترات من المحيط الأطلسي.

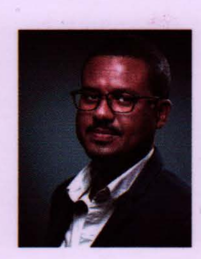
7 – الشعب الفولاني: الفُلان شعب يقطن مواطن عديدة في غرب إفريقيا ووسطها والساحل الإفريقي، والحجاز ويشكلون أقلية في كل دولة يسكنون فيها باستثناء غينيا، وهم يتحدثون لغات أخرى فضلاً عن لغتهم الأم، ولديهم ثقافة خاصة مميزة. وجلّهم من المسلمين.

8- الموريون: مصطلح ذو استخدام شعبي وعاميّ يطلق على كل سكان شمال إفريقيا أي المنطقة المغاربية. كما أنه يمكن أن يشير بالتحديد إلى مغربي من دون تمييز عرقي أو ديني أو ثقافي واضح.

9- قماش البازّ: قماش إفريقيّ من القطن القاسي موشّى بالرسوم الملوّنة الزاهية.

10- بواباب أو التبلدي: شجرة ضخمة تنتشر في جنوب الصحراء في القارة الإفريقية تتميز بساق ضخمة طويلة عارية الأفرع، يعلوها فروع عرضية تحمل الأوراق فتشبه المظلة.

قاسية وشاعرية في الوقت نفسه. تجمع بين جحيم حقل المعركة الدامي وليالي أفريقيا الوادعة في قراها النائية. حسرة على شباب لم تكتمل أحلامه راح ضحية أمجاد وطن ليس وطنه. أسئلة عن الحرب التي تحوّل الإنسان إلى وحش، وحش مؤقت أمام العدو ولا تقبل بالوحش خارج المعركة ولكن بعد فوات الأوان، عن شرعية المذابح وأشكال التمرد، عن الإنسانية ومفهومها الملتبس. «شقيق الروح» صلاة جنائزية كتبت لإحياء ذكرى المنسيين من التاريخ في الحرب الكبرى بأسلوب سلس على إيقاع الراب الأفريقي ونبض الشباب الجامح بما يحوي من تكرار وإلحاح يصمّ الآذان لعلّ الصوت يصل لإيقاف «الحروب المتحضّرة».



ولد دافيد ديوب في باريس ترعرع في السنيغال حالياً أستاذ محاضر في جامعة بو في فرنسا.



ISBN 978-614-432-369-4
9 786144 323694

مكتبة نوميديا